غائِمَة

رواية

فاطمة ماضي



غَائِمَةٌ

الكتاب : غائمة
المؤلف : فاطمة ماضي
تصميم الغلاف : مي يسري
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع :2014/9504
الترقيم الدولي : 978-977-6436-66-4
الطبعة الأولى : 2015



20 عمارات منتصر– الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com

غَائِمَةٌ

رواية لـ

فاطمة ماضي



إهداء..

إلى الوجوه العارية..

وإلى ملامح الطريق التي أُثقلت بالكثير من..

آلامنا..

انتظارنا..

وانكساراتنا..

* بقايانا..

تجبرنا الحياة على الصمت وحين ينتهي ميقاته ننسى كيف كانت الحروف والكلمات..

هذا هو حلمنا المفقود.. أن نعثر على أنفسنا ويا ليتنا نجدها..

هي بقايانا التي تتناثر في الهواء مع دوامات الحياة.. لا نعلم هل سنستطيع جمعها لنجد أنفسنا أم سنظل هكذا لنتلاشى ونضيع.. فنتساءل.. كم بقينا في عمر الزمن أم كنا وهمًا لا وجود له إلا في نفوسنا؟

هي آمالنا الضائعة وعنفواننا الخائر ورفات حاولنا تجميعه ففشلنا..

وكل شيء يبرد في الشتاء إلا لهيب أوجاعنا.. وكل يفقد حرارته مع الوقت.. حتى مشاعر البشر.

فلم أعد أعبأ بالبرودة.. فالصقيع داخلي أشد..

فاطمة ماضي

**

أحياء قديمة.. يسير فيها أناس تقرأ على وجوههم ملامح متشابهة، لا حزن ولا فرح حقيقي، تشم رائحة الشوارع.. مزيج من رائحة السوق والعرق والأتربة وقمامة متناثرة في الطريق تغلف المشهد، تسمع هتافات يومية عن أحوال الأولاد في المدرسة.. عن الأسعار.. عن زوجة نكدية.. عن رجل طلق امرأته، تحيات ودعابات عادية لا تنم عن صداقة أو عداوة.

ترى البائعين في كل مكان يتخذون نصيبًا كبيرًا من الشارع الضيق، يشاركونك نفسًا ضاق به صدرك، ووسط الطريق تسير فتاة مع أمها، تشدها الأم بعصبية حتى تُسرع في المشي، ترسم الطفلة بقدميها أثرًا على أتربة الشارع ويملأ عينيها الصغيرتين مشهد البائعين بشجارهم وصياحهم وملامح وجوههم غير الواضحة.

وخلف كل ذلك تمشي فتاة عمرها أكبر قليلاً عائدة من المدرسة تحثها قدماها للسير بسرعة في منطقة السوق المجاور لبيتها، تنظر لكل شيء بعينين متسائلتين رغم اعتيادها على ذلك المنظر اليومي، تمر على حانوت نجارة عم جابر فتتلقى منه التحية وتطأطئ رأسها، تشاهد الأولاد يلعبون في الشارع ويتقاذفون برمل وأتربة الطريق، ثم تصل إلى المنزل وتصعد طابقين قبل أن تدخل بيتها.

تبتسم لوالديها ابتسامة منهكة وتدخل حجرتها..

*****

" ككل من كانوا في مثل عمري : أفكر في كتابة خواطري ومذكراتي حتى إذا ضاقت بي الحياة أقرأها، ثم تمر الأيام وتكثر المسئوليات ويضيق الوقت.. فلا أكتب إلا كلمات قليلة لا توضح شيئًا مما ألم بي ".

*****

تجلس وحدها تفكر كالعادة:

" لا أفهم لماذا مُنعت من اللعب مع بقية الأولاد في الشارع، ولماذا كانوا يسمحون لي بذلك من قبل إذا كانوا سيرفضونه فيما بعد؟ فما الذي تغير؟

هل ضاق الشارع بلهونا وضحكنا عندما كبرنا؟ أم اشتكى الناس من أصواتنا العابثة؟ أم تغيرت فينا مشاعر كانت يومًا بريئة؟

سمعت أمي تقول لأبي: سأمنعها ابتداء من اليوم من اللعب في الشارع. لقد كبرت ويجب أن تعلم أنه يوجد فرق بين الولد والبنت..

فما الفرق الذي تقصده؟ خاصة بعدما عنفتني مرة حينما رأتني واقفة أطل من الشباك في نفس الوقت الذي كان حسام أمامي في شرفة منزله..

منزله الذي أكرهه بشدة، فصاحب العمارة بنى أكثر من دور فوق شقة والد حسام، فحرمت أيضًا من بصيص الضوء الذي كان يدخل إليّ من النافذة المغلقة، وغطت الطوابق الجديدة على وجهي بدلاً من نور الشمس.

وحلمت يومًا أن ألعب أمام البحر وألهو بمياهه الزرقاء، ولكن أمي استنكرت الذهاب إلى المصايف، فهناك أولاد عراة يلعبون بلباس البحر ولا يحق لفتاة أن تراهم هكذا، فنمت ليلتي وأنا أتساءل: متى تدخل الشمس بيتنا؟ "

*****

تحركت فيها الأنثى شيئًا فشيئًا، ظهرت في أعماقها كبذرة صغيرة تنمو ببطء، تبحث عن الضوء الذي يجعلها تكبر أكثر.. تُشبعها قطرات ماء قليلة أتت عليها من السماء.

" لم يعد إحساسي بأطفال الجيران الذكور هو نفس شعور المرح واللهو حينما كنا نلعب، بل استبدله شعور التحاشي من النظر إلى

أعينهم كلما سرت في الشارع، ويحتضن وجهي الأرض كلما شعرت به.. الخجل.. "

*****

" ألم شديد في ظهري وبطني.. أشعر بدوار ووهن يحول بيني وبين الاستمرار على الوقوف، أجلس قليلاً بعدما انتهيت من مسح الصالة وتراني أمي فتسألني:

- ماذا بك؟

فلا أستطيع الرد من شدة الألم، فتربت على ظهري وتطلب مني أن أرتاح لتكمل هي باقي الأعمال المنزلية..

وأدخل إلى حجرتي لأغير ملابسي فيفزعني ما أرى.. إنني أنزف.. من أين أتى هذا الدم؟ أجري إلى أمي في هلع وأحكي لها فتبتسم ابتسامة رضا وتقول بهدوء:

- مبروك.. لقد أصبحتِ آنسة!

لم أفهم ما تقصد، ولكني فهمت أن ذلك الدم بآلامه التي توجع ظهري وبطني ستأتي الشهر القادم وكل شهر باستمرار.. معنى هذا أن الأوجاع والنزيف سيستمران.

وضعت خدي على مخدتي وفكرت فيما قالته أمي.. لقد أصبحت آنسة.. لم أعد طفلة بعد، فهذا الدم أدخلني في عالم جديد.. عالم النساء.

هل من اليوم سأفك هذه الضفائر الغبية التي تقيد شعري؟ هل ستسمح لي أمي بوضع ولو قليل من أحمر الشفاه الخاص بها؟ وإلى متى سيستمر الألم الذي سببه لي هذا الدم السخيف؟

ولكني أدركت تفاهة نظرتي لهذا الدم والألم، فلقد تغيرت حياتي نهائيًا بعد ذلك اليوم.

لم يعد مسموحًا لي بالكلام ولو حتى بإيماءة بسيطة لأبناء الجيران..

لم يعد مسموحًا لي بالحديث مع فتيات الحي على السلم أو في الشارع..

لم يعد مسموحًا لي بالانفراد مع المدرس في حجرة واحدة.. بل كانت تجلس معنا أمي تتابعنا وهي تخيط شيئًا أو تقرأ مجلة..

لم يعد مسموحًا لي بعمل ضفائر أو فكها، بل ارتديت الحجاب..

لم يعد مسموحًا لي أن ألبس المريولة الواسعة الجميلة التي صاحبتني في لهوي ولعبي دائمًا، بل اشترت لي أمي جونلة طويلة تغطي ساقيّ.

لم يعد مسموحًا لي الحديث بصوت عالٍ كما كان من قبل..

لم يعد مسموحًا لي أن يكون هناك صوت لضحكاتي العابثة..

لم يعد مسموحًا لي أن أبتسم للبائع وأنا أشتري منه شيئًا وهو يقول لي:

يا حلوتي الصغيرة..

وكان لزامًا عليّ أن أمسك أعمالاً إضافية في المنزل عن ذي قبل، مضافًا إليها مذاكرة دروسي، وكان لزامًا أيضًا أن أخدم أخي طاهر وأقدم له الطعام إذا لم تكن أمي موجودة بالمنزل.

وفهمت أمي التغيرات التي طرأت على جسدي فاشترت لي حمالة صدر بعدها بفترة، كانت نفسي سعيدة متحمسة لتجربة شيء جديد، ولكني أصبت بخيبة أمل حينما اكتشفت مدى الضغط الواقع على صدري والذي يجب عليّ تحمله طوال الوقت..

وبتوالي الشهور أصبح اقتراب الميعاد ككابوس يبعث في نفسي الكآبة، أخبرت أمي أني أتألم بشدة.. ابتسمت بطرف فمها وقالت ببساطة:

ستعتادين عليها.. فهي بداية الألم.

رمقتها بنظرة جاهلة فأوضحت كلامها:

هذا الألم لا يُعتبر شيئًا بالنسبة لآلام الولادة..

- ألم.. ألم.. ألم، لماذا أي شيء خاص بالأنوثة يرتبط بالألم؟ حمالة الصدر.. الكعب العالي.. الدورة الشهرية.. الولادة.. نزع الشعر الزائد..

نهرتني أمي: اخفضي صوتك يا قليلة الأدب!

جاء ردي متمردًا: حتى الأشياء الخاصة بي لا يمكنني التحدث بشأنها؟! يا ليت الزمان توقف وظللت طفلة إلى الأبد".

*****

" تغير وجه حسام وعامر وأبناء الجيران الذين كنا نلعب معهم في الشارع، دخلوا هم أيضًا عالمًا جديدًا أبعدنا مسافات واسعة عن بعضنا البعض، لم تعد الوجوه كما كانت.. واختفت منها نظرات كانت تُسعدني أثناء اللعب واستُبدلت بنظرات أخرى، ظهرت تدريجيًا منذ ظهور ذلك الشعر الخفيف أسفل أنوفهم، وجباههم التي أخذت حيزًا أكبر في عرضها وأصواتهم التي بدأت تدب الخشونة في ذبذباتها.

أذكر ذات مرة رآني أخي أبتسم ابتسامة بسيطة عابرة لحسام أثناء عودتي من المدرسة، ليلتها أخذت صفعة قوية على وجهي من أبي أذهبت تلك الابتسامة وخلفت حزنًا عميقًا في قلبي.. هل إذا ابتسمت لتحية جار لنا فإن هذا ذنب عظيم يستوجب كسر كرامتي التي رفعها الله في وجهي؟!

هل الخطأ في ذلك ابتسامتي لحسام نفسه أو لأي ولد أم الخطأ في الابتسامة من الأساس؟ لا أعلم.. فمن حينها وأنا أخاف أن أبتسم في وجه أي رجل حتى عمي وأولاده.. حتى أبي وأخي، حتى لا أتلقى صفعة أخرى تُذهب ما تبقى لي من كرامة وتُخفض رأسي وتوجعني.

كم أشتاق للعبنا ونحن صغار.. كم أشتاق لابتساماتنا البريئة.. كم أتمنى لو تعود لحظة واحدة أرشف منها وقودًا أستطيع به تحمل ما أواجهه في الحياة.. وحدي".

*****

" تغير حسام من ناحيتي تمامًا، فلم تعد نظراته الحانية تخاطب عيني ولا ينظر لي نظرة متوترة مشتاقة تحذر من يفضحها، لا أفهم ماذا حدث؟ لقد أصبح يدير وجهه بعيدًا كلما رآني، وتحول تعمد التجاهل إلى تجاهل حقيقي وأصبحت عيناي لا تُمثلان لعينيه شيئًا مطلقًا.. وضاع مني الإحساس الجميل الذي كان يرافقني وهو ينظر لي بقلق حتى لا ألاحظه، وضاع مني إحساس النشوة الغامرة وهو يحدثني بعينيه الجميلتين اللتين لم تفقدا كثيرًا من براءة الماضي، حتى الحديث الخفي خفت نوره حتى تلاشى وتلاشى معه كل شيء جميل..

كم كان هذا رائعًا أن أشعر بأن أحدًا يتمناني.. ينتظرني.. يتلهف لرؤيتي.. يحكي لي بنظراته عن شيء من الأمل والحنين، لم يعد ينفع الآن

أن أسأله هل هو أمل أن نعود للعبنا مع بقية البنات والأولاد ثانية أم أمل بأن أنظر إليه نفس النظرة؟ أم حنين إلى أيام قتلتها الحياة كنا فيها نلهو ونضحك كما يحلو لنا دون أن يمنعونا عن الأمل والحنين؟

أشعر بالوحدة.. فمجتمعي الصغير تحول عني ولم يعد موجودًا.. اللعب في الشارع.. الفتيات غير المسموح لي بزيارتهن.. عينا حسام.. فلم تعد هناك حياة، فأصبحت صديقة نفسي.. أشكو إليها ما أعانيه، ولم يتعب أحد نفسه في إفهامي لماذا تغيرت حياتي كل هذا التغيير... "

*****

زارتها يومًا هيام صديقتها وسعدت جدًا لرؤيتها، أغلقتا باب الحجرة وجلستا على الفراش في مرح، ثم قالت لها:

أريد أن أحكي لك شيئًا حدث لي..

قالت بلهفة والابتسامة لا تفارقها: وما هو؟

- عادل.. أحد شباب المدرسة الثانوية التي في الشارع الخلفي لمدرستنا.. جاء بعد خروجنا وحدثني..

قالت أميرة بتعجب: وكيف لم ألحظ ذلك؟ إننا معًا دائمًا.

- لقد حدث ذلك وأنتِ غائبة بالأمس..

- وماذا قال لك؟

- قال إني جميلة وأنه أُعجب بي منذ أن رآني أول مرة.

- وهل رآكِ أكثر من مرة؟ إنه يراقبك إذن.

وتبعت أميرة هذه الكلمة بابتسامة خبيثة على وجهها.

عادت ابتسامة هيام الخجلى إلى وجهها وقالت: يبدو كذلك..

- وماذا بعد؟

- لا شيء..

- كيف لا شيء؟ إنه يتلاعب بعقلك.

- لا.. لا تقولي ذلك، إنه شاب طيب.

- لا يهم.. المهم الآن أن أهلك أو أي أحد يعرفك إذا رآكِ تتحدثين معه فسوف تكون العواقب وخيمة..

أطرقت رأسها تفكر: فعلاً كلامك صحيح، وما العمل إذن؟

ردت ببساطة: لا شيء.. تنسين الأمر تمامًا وتتجاهلينه.

نظرت لها نظرة ذات معنى قائلة: كما تجاهلتِ حسام، أليس كذلك؟

أشاحت بوجهها بعيدًا عنها وقالت: إنه هو الذي تجاهلني وليس أنا.

- أتريديني أن أكون مثلك؟ إنه الحب أيتها البلهاء.

- أي حب هذا؟ إن عمرنا ستة عشر عاما، فكيف يتسرب الحب إلى قلوبنا سريعًا هكذا؟ أمي تقول لى دائمًا: مازلت صغيرة.

- عقلك الزائد هذا سيعقدك ويحول حياتك إلى قالب من الطوب، أيتها الحمقاء.. إن الحب لا يتسرب إلا إلى القلوب الصغيرة الطيبة، وكلما دنست الأيام القلب لم يعد في استطاعته القدرة على الإحساس تدريجيًا، هذا ما أراه في الكبار.

قالت باستهزاء: أصبحتِ حكيمة، أرجوك لا تشغليني بكلامك هذا حتى لا أتعذب، لا أريد التفكير مرة أخرى بعدما تعافيت من التفكير في حسام.

ضربتها هيام ضربة خفيفة بالخُدّدية، وقالت:

إذن كوني كما أنتِ، ستعقدينني معك، أنا ذاهبة فالوقت تأخر وأمي أمرتني ألا أتأخر عن السادسة.

ودعتها أميرة ولكنها لم تستطع إسكات فضولها، فسألتها:

هل سترينه مجددًا؟

قالت: نعم.. غدًا.

وخرجت وتركتها للتفكير فيه... الحب.

*****

" مشيت في طريقي إلى المدرسة.. أنظر إلى الأمام لا ألتفت يمينًا ولا يسارًا، لا أسرح بعيني حتى لا ألمح أحدًا من شارعنا أعرفه فيكون أمامي خياران ؛ إما أن أرسل إليه إيماءة سلام وقد يشاهدني أحد ويقول لأبي، أو أكون وقحة ولا أرد السلام وأتجاهله.

وصلت إلى المدرسة.. لمحت من بعيد هيام وعادل، وقفت لأشاهدهما.. نظرت إلى وجهها ودققت فيه.. إن ضحكتها صافية.. فهي سعيدة فعلاً، ترى هل الحب يُسعد القلب إلى هذه الدرجة؟

نظرت إلى وجهه.. فيه نظرة إعجاب وسعادة هو الآخر، ماذا يقول لها لتبتسم كل هذه الابتسامة الواسعة؟ "

ثم التفتت تجاه المدرسة وودعته، أخرجت أميرة نفسها من حالة التأمل هذه واستدارت نحو باب المدرسة حتى لا تحرجها إذا لاحظت أنها رأتها، ولكنها نادت على أميرة.. ودخلتا معًا.

وفي نهاية اليوم خرجتا من باب المدرسة لتسمع صوتًا بجانبها ينادي اسمها.. صوتًا غير أنثوي.. صوتًا تعرفه جيدًا، أدارت ظهرها داعية الله أن يكون حدسها صحيحًا، نعم.. إنه هو..

- أميرة...

" أخيرا سمعتك تنطق اسمي ثانية.. لم أكن أشعر بنفسي حينما غبتَ عني، تصورت أنك أهملتني ونسيت يومًا كانت تمتزج فيه أصوات لعبنا بأيدينا المتسخة بالتراب، والمرح والسعادة يظلل كل ذلك..

أميرة.. لم أسمع اسمي حلوًا هكذا من قبل، كادت عيناي تدمعان حينما رأيته ينطقه بلهفة ظاهرة عليه..

اقتربت منه وأخرجتني هيام من حالة الذهول والفرح وهي تضغط على ذراعي قائلة بابتسامة خبيثة:

أنا ذاهبة..

التفتُ إليه ثانية فقال: أريد أن أتحدث معك لثانية.

ابتعدنا قليلاً عن المدرسة والصمت حاجز سميك يحجب بيننا، ولكنه كان أقوى مني، فكسره وتوقف عن السير وقال:

كنت أحاول التظاهر بأني لا أراك، ولم أكلمك حتى لا أسبب لك مشاكل، لقد تشاجر معي أخوك وأهانني، ولكني دافعت عنك وألصقت الخطأ بي.. إنني أحبك.. لا أستطيع أن أتحمل البعد عنك أكثر من هذا.

كانت كل هذه الكلمات الممزوجة بنبرات صوته المرتعشة الصادقة تمنعني من الاستمرار في الوقوف على قدميّ، ولكني عزمت على أن أظل واقفة عسى أن يقول كلامًا أجمل منه أو حتى أستمر في مشاهدتي له وهو يتحدث.

وأكمل حديثه: إننى الآن في نهاية السنة الأولى في الكلية، وسوف أعمل مع والدي في النجارة أثناء دراستي حتى أدخر ثمن دبلة ذهبية تجمعنا معًا..

- الكلام سهل يا حسام، الذهب غالٍ جدًا كما أن أهلي لن يوافقوا على شاب لا يملك وظيفة ولا شقة.

- يكفي أن أُظهر لهم حسن نيتي تجاهك وأني لا أريد التلاعب بك.

- حسن النية لم يعد كافيًا في هذا الزمان... "

*****

منذ ذلك اليوم غاب عنها حديثها الدائم مع نفسها ولم تعد تفكر في أي شيء إلا فيه.. شخصيته.. عينيه.. كلماته.. أنفاسه وهو يتحدث.. نبرة صوته.. تصرفاته.. إيماءاته وحركات يده، لم تعد تراه كما كان طفلاً صغيرًا يلعب، وإن كانت هذه الصورة تزيدها راحة من ناحيته، ولكنها رأته حينها بعين امرأة صغيرة تشتاق لرجل صغير أحبها ويريدها له..

أحست أن الحياة بدأت تضمها بحنو رقيق، وأن الربيع فتح قلبها على الوجود فشعرت بجمال كل شيء، وتحملت أكثر وصبرت على ما كان يضايقها من قبل، زادت بشاشة وجهها، وقلبها العفيف الصغير يرقص فرحًا عندما يراه.

هي.. أصبحت أكثر جمالاً في عينيها، أحست أنها مطلوبة.. منتظَرة وأنها زهرة لها عبير يملأ الدنيا بالسعادة.. وتوقفت كل الأمنيات، وتمنت فقط لو كرر لقاءه بها.

وهو.. لم يلمسها.. لم يُقبّلها.. بل حتى لم يحاول مسك يدها، كان يريد إبقاءها نقية.. بريئة.. لم يرجُ استغلالها واستنزاف عواطفها نحوه، إنها حبيبته.. لو بإمكانه أن يفديها بروحه حفاظًا عليها لفعل.. حتى لو من نفسه.

*****

رجعت يومًا إلى البيت بعدما لاحقته بعينيها في لهفة من يحلم باللقاء، ففوجئت بهياج في البيت، وقعت الكتب من يدها وحدثها قلبها في فزع:

لقد افتُضح سري الصغير..

ارتجف جسدها وارتعشت يداها وتعالى الدم إلى رأسها حتى كاد ينفجر..

قالت لها أمها:

- لابد أن تقطعي علاقتك بهذه الفتاة.

- أي فتاة؟

- هيام، لقد رآها أخوك طاهر تقف مع شابَ اليوم.

تسارعت ضربات قلبها وبلعت ريقها لتستعد للرد، وحاولت إخفاء معرفتها بالأمر:

- كيف؟ إنها لا تفعل ذلك أبدًا!

ردت الأم بإصرار: بل فعلت.

- وكيف فعل هو ذلك؟!

- شاب مجرم يتصيد البنات ويلهو بهن.

- لا أقصد على من تقولين أنه كان يقف معها، بل أقصد طاهر.. كيف راقبها وعرف عنها ذلك؟

- لا يهم.. المهم أن تقطعي علاقتك بها.

- بل هذا هو المهم.. إنني أعلم تمامًا أنه يقف ينتظر الفتيات ليلقي نظرة على هذه ويقول كلمة لتلك ويلهو بمضايقتهن هو الآخر.. إن عادل صديق طاهر يا أمي.

صاحت الأم في هلع وثورة: ومن عادل هذا؟!

- عادل هو الذي كانت تقف معه هيام وهو الذي يتلاعب بالفتيات، وهو صديق ابنك ويفعل مثلما يفعل تمامًا.

صرخت فيها: إذن أنتِ تعلمين اسمه أيضًا وتعرفين ذلك ولا تبتعدين عنها؟!

- لقد حذرتها مرارًا ولا أنكر أني أعرف، المهم أن ابنك هو الآخر مثله.

- وما دخلك أنتِ؟ فلتتركيه يفعل ما يشاء، كلمة واحدة سأقولها لك.. هذه البنت إذا جاءت هنا مرة أخرى فسأطردها.

وخرجت من الحجرة وصفقت الباب خلفها..

جلست أميرة على الفراش واضعة وجهها بين يديها وبكت.

لم تعرف هل هي تبكي لأنها ستحرمها من صديقتها، أم تبكي لأنها استنكرت أن فتاة تُحب ولا تستنكر أن الفتى يلهو ويتلاعب بالمشاعر، أم تبكي لأنها حملت ذنبًا لم تقترفه.

" لماذا يا أمي تستنكرين عليّ الحب؟ لماذا لا تعطين قلبي الفرصة ليعيش؟ لماذا تغلقين الأبواب في وجهي ولا تسمعينني؟ لماذا تجبريني على فعل شيء دون علمك ولا تلتفتين لمشاعري التي أمر بها؟

لماذا تفترضين سوء النية في كل ما أفعله؟ ألم تكوني يومًا فتاة مثلي تفتح عينيها على الحياة، تتمنى إنسانًا تلتحم روحها بروحه وتشعر في قربه بالألفة والأمان؟ ألم تشعري يومًا بلهفة لرؤيته وشوقًا لسماع صوته؟

وأنت يا أبي.. لماذا كل كلامك معي أوامر فقط؟ لماذا لا تكون صديقي؟ تسمع وتفهم وتوجه وتعيش معي ما أعيشه؟ لماذا لا يرق قلبك وتنظر لي بعين الرحمة؟

كم أتألم لأني رجعت إلى وحدتي مرة أخرى.. لا صديقة.. لا حبيب.. لا أب لا أم.. ولا أحد يفهم، يبدو أن الظلام وقته طويل والفرحة مجرد ومضات لا نستطيع تداركها، فلا نقدر على التمييز أكانت حقيقة أم خيالاً؟ "

وماذا سيكون رد فعلها إذا عرفت أنها هي الأخرى قلبها يخفق بالحب؟ وأنها متأثرة بشخص ما ولا تستطيع العيش بدونه؟ فعاشت في صراع خائفة، لا تريد أن يُخدش حبهما برفض أهلها وإيذاء طاهر لحسام.. ولكن منذ متى والقلب له القرار في الابتعاد عن الحبيب؟!

**

تنسمت من عينيه لمحة خاطفة تحمل مشاعر فياضة من شوق، تستأذن عينيها في دق أبوابها للدخول إلى قلبها. فجّرت في نفسها لهفة كانت تخفيها خلف ملامح جامدة غير مبالية. فجرت بسرعة لتفتح قلبها بابتسامة، ترك ما في يديه في حانوت أبيه وتبع خطواتها حتى التقيا في آخر شارعهما بعيدًا عن أنظار الفضوليين، وكانت فرحة اللقاء فرحة لا تحملها كلمات..

ضُمت يديهما فاقشعر جسديهما لتلك الرجفة التي سرت في أطرافهما وكأنها كهرباء لذيذة أنارت شيئًا في القلب كثيرًا ما انتظر البوح، لم يتكلما.. بل لم يفكر أحد منهما في الحديث.. وسكت اللسان ليصغي لحديث القلب، وتركا نفسيهما لجمال طاغٍ أحاطهما أثناء سيرهما معًا في الأحياء القديمة، أحياء فيها عطر لا تخيبه أنف تشم كل ما هو جميل وأصيل في القاهرة، عبير آلاف وآلاف من قصص الحب التي عاشت هنا ومازال شذاها يحكى واحتوتها ذاكرة الطريق، ونسيم مولد قصة حب جديدة تضاف إلى معالم الشوارع.

دخلت بيتها وكل شيء فيها يرقص في نشوة، تحاول حبس فرحها في جسد وقلب جامد يستر ما بداخله قدر المستطاع، وأغلقت بابها عليها وباب قلبها مازال مفتوحًا على مصراعيه للهواء النقي الذي تشمه بملء رئتيها، قلب يريد احتضان كل ما في الغرفة.. بل كل ما في الكون،

فتحت ذراعيها وطارت إلى الفراش لتترك نفسها له، تدغدغها مشاعر جميلة، الآن كل ما فيها رائع.. حر.. يعبر عن إحساسه بلا قيد، فما أعذب البوح عن الحب في لقاء تأوهت فيه الأعين..

وداعبت عينيها غفوة لذيذة، أفاقت بعدها لتجد نفسها مازالت بملابس المدرسة، فغيرتها سريعًا وجلست على مكتبها لتكتب في صندوق خواطرها..

" أريدك في داخلي.. أعماقي.. كياني، أريد التنسم بنسيمك وتنفس هواءك، أريد لمس يديك وأحل شعري بين راحتيك لتتلمسه بأصابعك الحانية وتشعرني بوجودي..

اقتحم عالمي.. فجر جنوني.. أخرج ما بداخلي لتغير شكل الكون فيصير أجمل، تحسس قلبي برفق ودعه ينطلق ويُفجر كل ما لديه ويعدو إلى ما لا نهاية، وحين أحقق أحلامي وأعبر عن عواطفي.. لا تلملم شعري المبعثر، بل اتركه يتطاير في عبير الحب..

فقط أريدني بين ذراعيك هادئة.. وكفى "..

وضعت القلم حين فُتح الباب فجأة، استدارت لتجد طاهر يغلق الباب خلفه ويقترب منها بخطوات بطيئة ونظرات مستعرة، خافت من نظراته على نفسها وعلى ورقة أفضت إليها، فوضعت يدها عليها تلقائيًا غير فاهمة ما يحدث، لم يلتفت لأوراقها بل كان كل نظره مركز عليها..

- مالك وهذا الولد؟

تلعثمت فدنا منها بسرعة وأمسك شعرها وشده بقوة، فتأوهت من شدة الألم، فقرب فمه من أذنها في نبرة كارهة:

سأستر عليكِ هذه المرة ولن أخبر والدي، أما إذا رأيتك معه مرة أخرى فأنتِ تعلمين غضبي.

وعقص شعرها بيده ليزداد الألم، وأنزلها بقوة ليضرب وجهها سطح المكتب، فارتطم به بشدة ورفعه ثم أعاده مرة أخرى وضغطه بكل قوته، وحذّرها:

هل سمعتني؟!!

ثم أفرج عنها بعد ضغطة قاسية أخيرة وفتح الباب وخرج، شعرت كأنها أُلقيت في الهاوية، اختنق الجو حولها وأفصح ألم عينها وجبهتها عن نفسه وطغى عليه وجع أكبر ترك علامته المريرة في نفسها..

واستمر طاهر يعاملها معاملة مهينة مغلفًا ذلك بنظرات احتقار نارية توحي للرائي بأنه يعرف عنها ذلة ارتكبتها، وكأنه رآها تمارس الرذيلة على قارعة الطريق، حتى لاحظت الأم ذلك فقالت له:

- ارفق بها قليلاً يا بني.

- تربية البنات يا أمي لابد أن تكون شديدة وحازمة.

- ما شاء الله عليك يا بني، رجل منذ الصغر، ولكن كن لينًا معها.. هذه أختك.

كان سينطق ليقول: لا يشرفني أن تكون أختي، ولكنه كبح لسانه بسرعة في اللحظة الأخيرة.

وعلّمتها الإهانة أن تبتعد عنه، كم كانت أيامًا جميلة شعرت فيها بالهواء النقي يتخلل صدرها حقًا، ثم راحت تلك الأنفاس إلى غير رجعة، فتركت لها ضيقًا وإحساسًا بالعذاب والضياع.

وعادت لحديث نفسها وصندوق خواطرها وشجونها مرة أخرى..

*****

لم تنسه.. ظل ساكنًا في ذاكرتها وإن حاولت تجاهل الأمر، ولكن حينما تجلس وحدها تشتكي إلى نفسها.. تُحدثه.. تناديه.. تتمناه، وفي يوم لم تُحدث نفسها ولم تذاكر دروسها.. بل أتت بورقة تُفضي إليها بما في داخلها، فكتبت مشاعرها وما تتمنى أن تقوله له:

" أريد أن أتوسد ذراعك وأتدثر بالآخر، وأتدفأ بصوتك الحنون.. فأدخل في عالم الأحلام وأغمض جفونًا اطمأنت وارتاحت فنعست..

وتؤنسني نبضات قلبك القريبة من قلبي وأذوب في دفء مشاعرك وحضنك.. وأغيب عن هذا العالم البغيض.. إلى عالم يشعرنى بأنوثتي وجمالي ووجودي.. وأشعر كأني طفلة صغيرة أحلامها أوسع من عرض الكون، يمكن أن تطير بلا قيد.. ترتفع في السماء بلا أجنحة.. فتضيء ظلام الليل بنور قلبها.. ونرى تلك الحياة من أعلى.. فتظهر في عيوننا صغيرة ضعيفة لا تقوى على كسر أحلامنا أبدًا.. "

مضت الأيام ثقيلة فيها حرمان.. وجع.. تأكل وتشرب وتنام كآلة دون إحساس بطعم الحياة، تتمنى لو تراه.. لو تكلمه وتحكي له عما حدث، ولكن لم تجد حولها إلا جدرانًا مغلقة على عينيها لا تتسع لضيق صدرها وألمها، وقررت أن تكسر حالة العزلة لتخرج مرة أخرى بعد غياب طال عن المدرسة، فقد تتسع الشوارع لما ضاقت به الجدران، أيام مرت كالدهر.. إحساس بالقهر.. اشتياق إلى الحب.. ذلك الإحساس الجميل المحرم.

وقبل نزولها حذرتها نظرة من طاهر.. نظرة تهديد.. تلحفت بالسلم النازل هروبًا من نظراته، أحست أكثر بالحرمان.. فكيف بها أن تشعر بالأمان في بيت لا تستوعب جدرانه إحساسها؟

مر اليوم عاديًا لا جديد فيه سوى أشكال تتحرك أمامها ترسم في عينيها وجوه البشر، وجوه ممسوحة غير محددة الهوية، لا ترى فيها إلا حركة سريعة تتقافز أمامها في المدرسة والأحياء المجاورة.

انعطف بها الطريق أثناء رجوعها إلى البيت، فرأتهما.. استدارت لتخفي نفسها خلف شجرة قديمة متداعية الفروع، كانت نظراتهما تملأها الشوق والحنين، قلبان منسجمان في مشاعر غامرة، وسمح صدرها - الذي علا وهبط تأثرًا - لعينيها أن تطلق العنان لدموعها، دققت النظر أكثر.. أحق هذا أم خيال؟! هل تصدق عينه التي تعرفها جيدًا؟ عين قاسية لا تلين.. هي الآن عين وديعة محبة.. أخوها ومعه فتاة تُقارب عمرها في وجهها سعادة تمنت لو كانت لها..

انقلبت دموعها في لحظة إلى غضب، تمنت لو أن السعادة التي يحسانها تنهدم وتتحول إلى عذاب.. تمنت لو ألقت بها أرضًا فهي تنعم بما لم تنعم به.. تمنت صفع هذا السجان الذي يحرم عليها الحب الصادق ويرتع هو في الحب المزيف الخادع، تعالى شعور الحقد والكراهية في قلبها لدرجة غلت معها دماؤها.. ولكن ما لبثت أن خبت كل هذه المشاعر شيئًا فشيئًا واستبدلها الرثاء لها لأنها ستلحق بمثيلاتها إلى سلة مهملاته..

وتبقت نيران التهمت قلبها - أو ما بقي منه - مع مزيج من التشفي فيها والرثاء لها، ولكن تحولت كل تلك المشاعر في النهاية إلى شفقة.. شفقة تجاه كل شيء حتى أخيها، فأسرعت من طريق آخر نحو البيت.. تحاول رسم تفاصيل الوجوه الممسوحة من حولها في ذهنها حتى تنسى ما كان ولا تتخيل ما سيكون...

*****

هو شارع يكاد يختفي منه البشر في تلك الساعة المبكرة من اليوم، ورغم أنه في منطقة مكدسة بالسكان إلا أنها مشت فيه وحدها ذاهبة إلى المدرسة، لم يحدثها إحساسها بأن هناك شيئًا غريبًا سيحدث. ففوجئت بهم..

هم مجموعة من الشباب.. جوعى.. مرضى.. سمتهم العنف والشقاء.. دائمًا في بحث دائب عن ضحية جديدة، اجتمعوا حولها في دائرة، عددهم ثلاثة ولكنها رأتهم كثر، ذاب قلبها خوفًا حتى إنها لم تعد تشعر به رغم عنف خفقانه، نظراتهم لا تنم على خير أبدًا، أحست بالوهن والخطر أعقبه صوت حبيس غير قادر على الصراخ.. ضربت أحدهم بكتبها ولكنه لم يبتعد بل تظاهر بالوجع سخرية منها واقتربوا أكثر، ومع اقترابهم تزلزل صدرها من سرعة شهيقه وأصبحت أكثر ضعفًا وضاقت عليها الدائرة، عيونهم شرسة يشيرون إليها بأيديهم بإيماءات وحركات جنسية ولكنها لم تعد تدرك أي شيء حولها.

ارتعشت يدها فوقعت الكتب على الأرض وضاقت الدائرة أكثر فأكثر، اقتحمها أحدهم وأمسك بصدرها فأبعدت يده بسرعة واحتضنت نفسها، حاولت الصراخ فخذلتها حنجرتها ثانية من الخوف، تسللت يد الآخر إلى حجابها ومزقه وشد شعرها، ثم شل حركتها اثنان منهم وتحسس الثالث ساقيها تحت جونلتها الطويلة وهموا بإيقاعها لجرها

على الأرض، وهنا خرج صوتها السجين عاليًا لينقذها أخيرًا ويلحق بها في المعركة.

لا تعلم من أين ظهر حسام في هذه اللحظة فاستغاثت به، بل هو كان قادمًا من أجلها، وعندما رأى هذا المنظر تحول إلى وحش غاضب، ضرب على ظهورهم بكل قوته فتمسكوا بها أكثر، فجذبهم بأظافره في وجوههم، وأجبرهم ألم غضبه وسرعة ضرباته على تركها ترتمي على الأرض والتفتوا إليه.

كانت تتمنى حينها أن تغيب عن الوعي بعدما أُنقذت من تحت أيديهم حتى لا تشعر بقسوة تلك الدقائق عليها، بل كانت تتمنى لو غابت عن الوجود كله وفارقت الحياة، خرجت من لوعتها هذه على جبهة حسام السائل منها الدم، ولكنه اقترب منها وأوقفها وخلع قميصه وألبسها إياه، فهي لم تكن تدري أن ملابسها تمزقت من الشد والمقاومة.

فرت دموعها.. وتردد في عقلها صدى أليم: " أنا فريسة.. لقد انتهكت "..

غطت الأرض عينيها وتلفحت بذراعيها، كان لا يزال جسدها يرتجف، ثم رفعت رأسها ببطء.. نظرا لبعضهما البعض بنظرات لا تخرج من العين إلا في هذا الموقف العصيب، نظرتها نظرة ضعيفة منكسرة يائسة ونظرته حزينة متألمة غاضبة، ثم استطاع تمالك نفسه وربت على ظهرها وجمع كتبها من على الأرض وحملها عنها، وأسند ذراعها على

كتفيه وأسند وسطها بذراعه الآخر، فلقد كانت كالورقة التي تتمايل من شدة الوهن، وأقل هفوة من هواء تُسقطها.. فكان عمادها.

دخلا الحارة وسط اندهاش وتساؤل الناس.. عيونهم كالرصاص تخترق ملابسهما المتهتكة وقلبيهما الجريحين. مشهدهما جعل الجميع لا يقوى إلا على التساؤل دون مد يد العون.

جرى طاهر نحوهما غاضبًا وصرخ فيه:

ماذا حدث لها؟ ماذا فعلت بأختي يا مجرم؟

رفع رأسه ناظرًا إليه بحدة بعينيه المضروبتين، فأمسكت بغضب طاهر وجعلته يضطرب. فالأمر يبدو عليه الخطورة..

دخل حسام المنزل ثم أنامها على الأريكة، لم يسمع تساؤلات أبيها ولا هلع أمها حتى عندما أمسك طاهر بذراعيه بشدة وصرخ ثانية:

ماذا حدث؟!

لم يجب حسام وأبعد ذراعيه عنه ومشى دون كلمة واحدة..

نزل من بيتها تنهشه نظرات الناس الفضولية وهو يحمي بيديه كتفيه العاريتين.

قالوا حدثت لها حادثة..

قالوا اعتدى عليها ومزق ملابسها وعندما دافعت عن نفسها ضربته وأسالت دمه..

قالوا لقد افتضح أمرهما ففار دم طاهر وثار لكرامته وضربهما ردعًا لهما..

قالوا لقد كانا معًا وفاجأهما أشقياء استولوا على خاتمها وما معه من نقود..

قالوا هي تمثيلية طفولية غبية فعلاها معًا حتى يستيقن الأب أن سمعة ابنته في خطر ليوافق على زواجهما..

قالوا تم القبض عليهما متلبسين بما يفعلانه من حرام فأوسعهما الشرطي ضربًا في القسم، وعندما توسلا إليه أطلق سراحهما رحمة بهما من الفضيحة..

قالوا.. وقالوا.. وقالوا..

أما هو فظل سائرًا لا يرى معالم الطريق، لم يعرف أي الطرق سار فيها ولا كم مضى من الوقت، كم هو عسير عليه أن يرى ذلك يحدث لزهرته البيضاء، وتوقف عند النيل فتوالت على صفحته لحظات ذلك المشهد البشع ببطء شديد وقسوة..

يمشي وراءها ليأخذ منها أي تفسير لابتعادها عنه.. فيراها تستغيث وتصرخ..

يلوحون بأيديهم على أجسادهم وجسدها بحركات قذرة وهي تنظر إليهم في رعب وهلع..

الأول يمسك أجزاء من جسدها.. الآخر يشد شعرها ويحاول انتزاع حجابها..

ضربات متوالية على ظهره ورأسه وهو يحاول إنقاذها..

ومرت الساعات مفجعة من تكرار لحظاتها وهو جالس أمام النيل لا يتحرك..

تجمد الدم الحار على رأسه ولكنه لم يحس به، انهمرت دموعه على خديه وتخللت شعر وجهه النابت الصغير، وزفر زفرة أحرقت الهواء من حوله وألهبت مياه النيل أمامه، وصاحب قرص الشمس دمعتيه حتى نزلا معًا إلى القاع، فحل الظلام على الكون وطغى على عينيه وقلبه، وقال:

نعم لقد أنقذتك من أيديهم.. ولكني لم أحميك من جروح الحياة وغدرها يا صغيرتي..

*****

أما هي فظلت صامتة لا تقدر على النطق، ورغم شكلها المثير للتساؤل كان اكتئابها وحزنها مثيرين للشفقة فتركوها وحدها، فبكت كما لم تبكِ من قبل.. بكت وتلك اللقطات المريرة تتكرر أمام عينيها بتفاصيلها وكأنها تحدث باستمرار دون رحمة، تغطت بالملاءة واحتضنت نفسها كأنها تواسي جسدها الذي انتُهك وكان قميص حسام مازال على كتفيها يدفئهما ويقيهما من ارتجافها.

دخلت أمها وفى قلبها قلق وذعر تخفيه، أغلقت الباب وجلست أمامها وقالت:

- قولي لي يا حبيبة أمك.. ماذا حدث؟ إن قلبي يتمزق لأجلك، أرجوك طمئني قلبي.

تكورت على نفسها أكثر وقالت بشفاه مرتشعة:

أنا بخير..

صوتها يدل على الانهيار أكثر من أي شيء، شعرت الأم أنها في حالة لا ينفع معها الكلام فربتت عليها وقالت باستسلام:

نامي يا ابنتي وسوف نتكلم غدًا.

وضعت أميرة رأسها على المخدة فسمعت الأم صوت ورقة تنهرس تحت الأغطية فسحبتها من تحت ابنتها وفتحتها.. . خرج الذعر والقلق من

قلبها على عينيها المحملقتين في غضب وتحولا في لحظة إلى شراسة. وصاحت فيها:

ما هذا الذي تكتبينه؟! ما الذي بينك وبين هذا الولد الوضيع؟

وصفعتها صفعة أطاحت بوجهها ليرتطم رأسها على مكتبها المجاور للفراش، فقامت ولاذت بالحائط ووقع قميص حسام من على كتفها، وحجبت وجهها بذراعيها واضعة إياهما عكس بعض كدفاع ضعيف متسائلة عما فعلت.

فصاحت فيها الأم: " أريد أن أتوسد ذراعك؟ وأتدثر بالآخر؟ "، هل هذا الذي تفعلانه معًا أيتها الفاجرة اللعينة؟

وتوالت الصفعات عليها وهي تصرخ: أتريدين أن تدنسي سمعتنا البيضاء في الحارة؟ تريدين أن تمشي كما يحلو لك؟ تريدين منه أن يحتضنك في حضنه الدافئ يا قذرة يا حقيرة؟

وهنا لم تتحمل البنت أكثر من هذا فسقطت على الأرض..

*****

أسند أبوها عبد الظاهر وجهه على الحائط خائفًا من أي كلمة يمكن سماعها.. ثم خرج الطبيب بعد دقائق فتعلق بكتفه في لهفة..

قال: إنها لا تعاني مرضًا، غيبوبتها هذه نتيجة ضغط نفسي شديد لم تتحمله ولم تستطع التفريج عنه، قد يكون إرهاقًا حاولت مقاومته أو تجاهلته فعاقبها جسدها بالإغماء، هل أخبرها أحد أي خبر سيء بصورة مفاجئة أو واجهت ضغطًا شديدًا على أعصابها؟

لم يعطِ أبوها الفرصة لأحد أن يرد، بل أخذ الطبيب للحظة بعيدًا عنهم ليقول له شيئًا..

نظر إليه الطبيب بدهشة ووضع الأب رأسه في الأرض، فقال الطبيب:

لا.. إنها منهارة فقط والكدمات التي في وجهها وذراعيها بسيطة، قد تكون نتيجة عراك مع أحد، ثم انهارت ولم تتحمل.

توسل الأب: أرجوك أرح قلبي..

ارتاب وجه الطبيب وقال ببطء: قل لي ماذا حدث بالضبط قبل إغمائها؟!

خفت صوت عبد الظاهر أكثر ورد بحسرة: أنا نفسي لا أعرف.

فربت الطبيب على يده وقال:

قلت لك إنه ليس اعتداءً جنسيًا، الفتاة بخير.

فرفع الأب يده إلى السماء وصاح: الحمد لله.. الحمد لله.

فبكت الأم وقالت بخفوت: لماذا يا ابنتي تضعينا في هذا الموقف الحرج العصيب؟ لماذا تعرضينا للقيل والقال؟

*****

وبعد مرور أيام تحسنت أميرة وقامت من رقدتها بعدما أوصى الطبيب ألا يضغط عليها أحد في نقاش أو بأي تصرف يضايقها.

ولكنها مازالت صامتة.. وحاولت بمرور الأيام أن تصمد وتتعافى، حتى دخل أبوها عليها وجلس أمامها، وقال:

لقد أصبحتِ بخير الآن ونفذنا أوامر الطبيب ولم نضغط عليك بأي شيء، ولكن بعد أن أصبحت في صحة جيدة فسوف لا أخرج من هنا أبدًا إلا إذا عرفت منك ما حدث.

ظلت صامتة فقال بإصرار:

اصمتي كما تحبين، سأظل ثابتًا ولا أتحرك من أمامك إلا إذا عرفت كل شيء.. وبالتفصيل.

حركت شفتيها ببطء وازداد تركيز الأب معها، وقالت:

تحرش بي ثلاثة شباب ورآهم حسام فأنقذني منهم.

- وما الذي قطع ملابسك؟!

أطرقت رأسها خجلاً، فزمجر قائلاً: السفلة..

- إذن.. ما الذي قطع ملابسه هو؟

- كان يحاول إنقاذي بكل قوته فضربهم وضربوه حتى تمزقت ملابسه، ولكنه خلع قميصه ووضعه على كتفي.

لم يرد الأب وظل واجمًا غير قادر على النطق، وقام من أمامها مطرقًا في هدوء حزين..

استقبلته الأم بلهفة وقالت: ماذا قالت لك؟

نظر إليها نظرة حائرة ولم يرد..

صاحت: سوف لا أتركك.. رد عليّ، ماذا قالت؟

- ابنتنا نظيفة يا فتحية.. شريفة لم يدنسها شيء، الولد دافع عنها وحماها ولم يعتدِ عليها مثلما تصورنا.. ابنتنا بخير.

وهبطت دموعه على خده فصاحت: افرض أنها تكذب.

رد بنفس الإصرار: البنت لا تكذب.. ابنتنا طاهرة يا أم طاهر.

وخرج وأغلق وراءه باب الشقة..

يا عم عبد الظاهر.. يا عم عبد الظاهر..

لم يرد الأب على نداءات أهل الحارة ليطمئنوا على الفتاة، أو بمعنى أصح ليستخبروا منه عما حدث.

نظرت أميرة من طرف خفي من النافذة إلى أهل الحارة:

" اهتموا فقط بسلامة جزء معين من جسدي.. ولم يهتموا بإحساسي بالانتهاك، اهتموا بالجزء السفلي ولم يهتموا بسلامة جزئي العلوي.. كرامتي ونقاء وجهي ".

**

وتوالت الأيام على هذا النحو، الصورة تتكرر في عينيّ حسام، تُشعره بالغضب.. بالألم.. بالعذاب، ويحمد الله أنه أنقذها ولكن عقله لم يرحمه..

وأجبره التفكير على التفاني في العمل حيث عمل نجارًا مع أبيه عم جابر أثناء دراسته ليحصل على ماله الخاص، وهربًا من تكرار ذلك المشهد البغيض أمام عينيه، فيعود يوميًا وهو لا يستطيع الوقوف على قدميه من شدة التعب.

أما هي فأصبحت تخاف الرجال.. كل الرجال السائرين في الشارع، وإذا صاح بجانبها أحد أو قام بأي حركة فجائية تبتعد بسرعة وتتفاداه.

حتى مرت الأيام بثقلها لتداوي أي جرح وتغطي على أي ذكرى وتضعها في موضع من النفس ظاهر وغير ظاهر.. موضع في أعماقها لا تشعر به بوضوح رغم أنه داخلها ويؤثر فيها.

وكانت كلما مرت على حسام وهو يعمل بجد ابتسمت ابتسامة صافية من قلبها، فهو الرجل الوحيد الذي دافع عنها وأحبها بصدق، ترى حبه في انهماكه في الدراسة والعمل.. في نظرته الحائرة وهو يبحث عنها إذا تأخرت لدقيقة وعيناه تنتظران إلى الاتجاه الذي تعود منه من المدرسة.. في لهفته عليها إذا رآها تتبعه بابتسامتها من بعيد.

حتى أتى وقت الامتحانات وانشغلا في دراستهما، وبعدها كان حسام عازمًا على ما وعد به أميرة، وطلب من أبيه الأسطى جابر أن يطلب يدها، ووافق أبوه على محادثة عبد الظاهر مترددًا وتحت إلحاح حسام، فهو شاب في بداية حياته لا يملك إلا الارتباط بها بشبكة رمزية أو حتى دبلتين حسب ما تتسع يده من المال، ولكن - ولدهشتهما - وافق عبد الظاهر على مبدأ الخطبة نفسه، ولم يرفض لاعتبارات مادية، وقدّر في نفسه العشرة الطيبة بين العائلتين منذ زمن طويل.

ودخل عبد الظاهر بيته مبتسمًا مناديًا على ابنته، فأتت إليه، أجلسها وقال:

الأسطى جابر اليوم حدثني في المقهى ليطلب يدك لابنه حسام.

امتلأ وجهها بالدماء خجلاً ولم تتكلم.

- أعلم أنك موافقة.. مبارك عليك يا ابنتي.

وقبل جبينها قبلة حانية ودخلت حجرتها جريًا تكاد تطير من الأرض من شدة السعادة، بينما أمها تراقب كل ذلك بسخط. جلست بجانب عبد الظاهر وقالت:

هذا الشاب مازال صغيرًا وليس لديه مستقبل، يأخذ مال يده من أبيه ويذاكر دروسه وينام مبكرًا ليلحق بالجامعة.. في رأيي.. لم يصبح رجلاً مسئولاً بعد.

- حسام رجل يا فتحية، ولا يأخذ من أبيه إلا نظير تعبه معه في العمل، ويسعى ليتعب أكثر وأكثر ليسعدها، كما أن الخطبة قد تستمر لسنتين مثلاً حتى يدخر ما يستطيع به تجهيز الشقة.

ردت باستهزاء: وأين الشقة؟!

- الشقق موجودة ولكن ما يصعب المسألة قانون الإيجار الجديد المحدد بمدة، لا تفكري كثيرًا واتركيها على الله.

- وهل نترك بنتنا لولد كان يلعب معها في الشارع؟ طالب.. لا يملك شيئًا؟

- فتحية! لن أزوج ابنتي إلا لهذا الولد، لا أأتمن أحدًا عليها إلا هو، أنسيتِ؟! من دافع عنها وحماها يوم تحرش بها المجرمون؟ من أسندها على يديه حتى هنا وسترها بقميصه؟ لا أُنكر أني كنت على وشك ذبحها بعدما عرفت أنها تقابله بعد انتهاء موعد المدرسة، ولكنه أظهر نبلاً ومحبة لها أشك أن أجد مثلهما اليوم.

- وهل لا يوجد غيره يملك الشجاعة والنبل والمال أيضًا؟

- النقاش انتهى.. اتفقت مع أبيه بصورة مبدئية وسيأتيان غدًا هنا ويطلب يدها رسميًا، فلتحضري عشاء لائقًا..

*****

ومرت الأيام بعد خطبتهما وهي تمشي في الشارع رافعة رأسها تومئ إليه بعين مبتسمة شقية، ويرد عليها بقلبه المتلهف لرؤيتها.. ثم تشيح وجهها عنه ببطء وكبرياء لتواجه أعين المارة وأصحاب المحال بنظراتها.. بقوتها.. باحتقارها لهم، لقد ظنوا فيها السوء وهي تعلم جيدًا ما يفعل بعضهم في الخفاء.

*****

وفي يوم من أيام بداية العام الدراسى الجديد أنهى حسام محاضراته وخرج من المدرج ليودع زملاءه كالعادة، ولكن لفتت نظره تلك الفتاة الجديدة التي لم يرها من قبل، قالت له إحدى زميلاته: إنها زميلة جديدة لنا.. انتقلت مع عائلتها مؤخرًا إلى مصر، واسمها منى.

أومأ لها برأسه وعرفها بنفسه، ورجع بيته مفكرًا في ليل هذا اليوم، سيقابل فتاته في بيت أهلها.. سيزورها ويطمئن عليها.. ماذا سيرتدي؟ ماذا سيُحضر لها لتفرح؟ هي تحب الشيكولاتة، هز رأسه مفكرًا:

لا.. لقد أحضرت لها شيكولاتة المرة السابقة، ترى.. هل ستكون جميلة كالعادة أم ستكون أجمل من كل مرة؟ وهل ستمر الدقائق مهرولة أيضًا وأنا أكلمها في وجود أمها التي تنظر إلينا بعين فاحصة كارهة من بعيد؟

ومرت الساعات كالحلم الجميل، وودعها وقلبه يعترض اعتراضًا عنيفًا في صدره، وتنفس وبابها يُغلق نفسًا عميقًا من داخل صدره.. كم الحب جميل..

*****

وفي اليوم التالي قابل زملاءه ووجدها أيضًا تقف معهم.. منى، تأملها في حذر.. وانبهر..

شرسة في رقتها.. طاغية في حنان عينيها، جمالها يسلب لبك بين مخالبه وينثره بعيدًا في الضياع، عيناها مملوءتان بالثقة بالنفس، والتحدي يضفي على روحها جمالاً له مذاق معين.. مذاق الفتاة الجريئة المواجهة للحياة.. مذاق الأنثى الغجرية التي تعلم جيدًا إلى أين تذهب حياتها ومن أين أتت وماذا ستفعل في المستقبل، عيناها تقرر ماذا تريد.. قادرة على تطويع الأشياء من حولها، وتأمل بقية الفتيات.. في أعينهن شرارة بسيطة.. ليست بسيطة لضعفها ولكن لمحاولة إخفائها، إنهن يغرن منها يتابعن بلهفة أعين الشباب عليها، فشعر فيها

بنوع مختلف من الجمال.. جمال متوحش جريء.. يأمرك فتطيع دون حتى أدنى استئذان أو تمهل.

حاول طرد هذه الأفكار من رأسه واندمج معهم في الحديث. والذي كان يدور عن الحياة في الخارج، لقد كانت منى تعيش في دولة أوروبية قبل أن تأتي إلى مصر وتستقر هنا مع عائلتها حيث بلدهم الأصلي، لم يرهق نفسه بأسئلة فارغة ليعرف ما هي الدولة التي كان يعمل بها والدها، فمن المؤكد أنهم قالوا الكثير عنها أثناء الكلام، ولكن استغراقه في التفكير جعله لا يسمع جيدًا ما يقال، كما أنه سيظهر في صورة الأبله الذي يسأل عن شيء مضى من الوقت الكثير يتحدثون عنه. واستأذن من تلك الجلسة.. كم هم متعطشون لمعرفة الحياة خارج مصر.. كيف هي؟ وما مستوى المعيشة وتصرفات الناس ومعتقداتهم وحياتهم وتقليعاتهم وعاداتهم، أما هو فلا يهمه سوى البلد التي يوجد فيها حب حياته.

ولكنه توقف للحظة بعدما ابتعد كثيرًا عنهم وتأملها مرة أخرى.. فيها بساطة وخفة روح.. في وجهها حب الحياة ومرح مقاوم للهموم، في حركات يدها وجسدها فيض من نعومة المرأة وقوتها وأنوثة متوحشة، ابتعدت عنهم وحيتهم بذراعها، فاختبأ خلف الشجرة التي كان يقف بجوارها ولكنه فوجئ بقدمها تصطدم بحجر على الأرض بالقرب منه،

فأسرع في لمحة كالبرق ليسندها قبل أن تسقط، وشهقت من المفاجأة...

تمالكت نفسها بسرعة واندهشت: من أين ظهرت؟! لم يكن أحد هنا.. لقد أخفتني بشدة.

لم يرد وظل متفرسًا فيها، وخبطت على رأسها خبطة رقيقة وقالت: نعم.. أنت؟

نطق بهدوء: حسام.. لقد تعرفت عليك البارحة، ووقفت معك وبقية الزملاء منذ دقائق..

- نعم.. تذكرتك لقد كنت صامتًا أثناء الحديث، أشكرك لقد كدت أسقط..

ثم قالت بمرح: كان سيصبح شكلي سيئًا للغاية إذا كنت الآن على الأرض.

وابتسمت ابتسامة طويلة ثم راحت من وجهها وظهرت عليها علامات التعجب، وتساءلت في نفسها:

ما هذا الأحمق الذي يتفرس في وجهي كأنما تحول إلى تمثال؟!

وحركت يدها أمام وجهه.. عيناه لا تطرفان! فتركته ومشت دون سلام وهزت رأسها في استنكار، وظل يتأملها وهي تبتعد، شعر بإحساس لم يشعر به من قبل، فيها رقة الأنثى مع جبروتها.. نظرة عينيها حانية قاهرة، خطواتها ثابتة قادرة على كسر الأرض من تحتها لرقة ميلها واعتزازها بنفسها، وسرح بذهنه مع هذه الرائحة.. عطرها مازال يفوح في الجو.. وأغمض عينيه يستمتع بدخوله إلى جنة خضراء مزهرة.

وفي طريق عودته رأى أميرة تمشي في بداية الشارع ذاهبة إلى المنزل.. نظر إليها بتمعن.. إنها مختلفة عن كل مرة.. ملابس المدرسة تعطيها نقاء مميزًا، ولكن شعر بشيء غريب أفاقه على الواقع، فناداها فالتفتت إليه وابتسمت.. مازالت فرحة عينيها البسيطة تريح قلبه..

ودخل بيته ثم إلى حجرته يفكر ناظرًا إلى السقف، وانقسم خيال عينيه إلى شقين، وواجه الصورتين أمامه.. يبدو أنه لم يكن يعرف شيئًا عن الفتيات وعالم النساء.. إحساسه بأميرة دائمًا كان عذريًا.. شفافًا، وتمنى لو اقتطف تلك الزهرة التي رآها اليوم..

*****

وبعد شهورالتحقت أميرة بالجامعة في كلية الآداب وليس التجارة كحسام، شعرت بكبر ذلك المجتمع الجديد عن حياتها المغلقة السابقة، وتعرفت على الكثيرات من الفتيات بروحها المستحبة،

خجلت في البداية من التعامل مع الشباب، ولكنها اعتادت الأمر بعد ذلك.

وما مرت عدة أيام حتى رأته.. اجتياح عارم للمشاعر.. السعادة.. الجمال.. النشوى، لا تعلم كيف أسرها بعينيه الصارمتين القاسيتين اللتين فيهما ما يبوح عن سطوة الرجل وحنانه، جمال يعطي ويسلب.. يعطي وعودًا ويسلب عقلاً ووجدانًا، تأملته في صمت وسكون.. كتفاه عريضتان واضحتان تحت قميصه، مظهره يحمل من البساطة والتعقيد الكثير والكثير، ذراعاه مملوءتان بالشعر، وعظام ساعديه قوية بارزة، أحست بأنها ترى حياة جديدة تبهرها.

نادت عليه إحدى الفتيات الواقفات مع أميرة: حازم.. حازم.

استدار للنداء وابتسم.. لا إنها ليست ابتسامة.. إنها نهر من أنهار الجنة الذي لا تظمأ إذا شربت منه أبدًا.. تعرفا على بعضهما البعض.. كانت نظرة أميرة إليه كافية لكشف ما بداخلها من عواطف تأججت في لحظات..

ومرت الأيام وهو يسعى للتقارب وهي لا تتمالك نفسها وأعصابها من السعادة.. كلمات رقيقة.. أنفاس ملتهبة تخرج من حديثه معها تشعل داخلها نارًا تربح وتوجع.. تغرد وتزأر، وتمنت في لحظة لو شد ذراعيها بقوة إليه لترتمي فيهما في ضعف واستسلام..

*****

سار حسام مفكرًا في كل كلمة قالها لمنى، وتردد صدى صوته في أذنه مرتعشًا عندما صارحها بحبه، لقد تفجرت منه أحاسيس لم يتصورها وخرجت من فمه كلمات الشعراء والمعذبين من جمال وعذاب الحب، كم أثارت فيه أشياء كثيرة كانت راكدة داخله قبل أن يراها، فالنساء أنواع.. ولكن كل شيء في كيانه كان محفوظًا فقط لواحدة.. أميرة، تلك الطفلة الرقيقة التي تُشعرك بأن الحياة لازالت بخير، ولكن ذلك جعله يشعر بالملل وأحيانًا بالاختناق، لا يوجد أي إثارة في حياتهما.. مغامرة.. غيرة.. جرأة.. عذاب ونعيم..

لا يتذكر حتى أنه احتضنها مرة أو قبّلها أبدًا، بل لم يتخيل أنه سيفعلها.. كانت أميرة ولازالت حالة من التعايش الجميل مع الحياة وكأنك تعيش بسلام مع نفسك، ولكنك لا تستطيع العيش مع نفسك طوال الوقت وإلا قتلتك الوحدة!

*****

دخلت أميرة حجرتها وارتمت على فراشها في رقة عصفور يغرد للحياة لأول مرة، وسألت نفسها: من أين أتيت لي أيها الفتى الجميل؟

وتكررت أصداء كلماته في أذنها.. كم هذا الكلام جميل.. ساحر، وتساءلت:

ما هذا الاشتعال الذي في صدري ويزداد كلما رأيته وسمعت نبرة صوته؟!

وشعرت به يلامس روحها ويداعب خفايا رقيقة في كيانها بابتسامته الساحرة وكلامه العذب وصدره العريض وجسده الخشن..

هل صدره العريض سيقدر على استيعاب أحلامها الواسعة؟ مشاعرها الفياضة؟ اجتياح الحب في قلبها؟ أم سيكون أضيق من حدود الزمن؟ هل يداه الدافئتان ستدفئان روحها أم ستحرقانها بناره؟ مجرد تساؤل حيرها..

وتعجبت.. إنها لا تتذكر حتى أن حسام قال لها كلمة تدللها أو تعبر لها عن أنوثتها أبدًا.. مشاعر طفولية إلى أقصى حد ولكنها طيبة وجميلة لا تُناسب الحياة والواقع، كأنك أحببت السماء لأنها أول شيء رأته عيناك عندما كسرت قشر البيضة وخرجت، ولكنك لا تستطيع أن تعتبر السماء هي حب حياتك بالطبع، حتى وإن كان لونها له أثر عظيم في قلبك!

*****

اتفقا على أن يلتقيا بعد انتهاء محاضراتهما.. كانت السماء ملبدة بالغيوم في يوم من أيام الشتاء، وتمنت لو ظهرت الشمس، كل خطوة كان يخطوها نحو لقياها أشعرته بسكين في يده سيقتلها بها عما قليل،

وزاد تدريجيًا شعوره بالذنب والقلق والتذبذب، تأمل نظرة عينها.. يبدو أنها هي الأخرى تريد أن تقول شيئًا ومترددة فيه. فسمح لها بالكلام أولاً لعله آخر شيء جميل يسمعه منها..

أميرة: أريد أن أحدثك عن شيء هام..

نظر إليها مصغيًا ولم يعقب..

قالت بخجل تشوبه مرارة: أعتقد أننا تسرعنا في قرار الخطبة بيننا.

نسي حسام ما كان يريد قوله وتغيرت ملامحه ولم يصدق ما يقال.

- إنني اكتشفت أن شعوري ناحيتك شعور رائع حقًا ولكنه لا يختلف عن مشاعر الأخوة والتقدير ومحبة الأصدقاء، من المحتمل أننا تصورنا أن ما بيننا حبًا لمعرفتنا الطويلة ببعضنا البعض، والجيرة جعلتنا عائلة واحدة وكيانا واحدًا، ولكني للأسف لا أستطيع الاستمرار.

رد عليها بنبرة غاضبة: اكتشفت؟! تصورنا؟! هل تريدين إقناعي بأن كل ما بيننا كان وهمًا؟

- ليس وهمًا.. ولكنها مشاعر حب غير مستقر، غير واضح المعالم.

لم يستطع الرد.. لقد لاقت كلماتها صدى في نفسه، نعم.. هي محقة ولكنه غالط نفسه واستنكر ذلك.

أكملت في أسلوب الناصح: صدقني مشاعرنا جميلة ولكننا لم نتيقن منها، كما أنه لا يصح للإنسان أن يرتبط بأول حب في حياته.

صاح فيها: الآن فهمت، لقد قابلتِ شخصًا آخر.. انطقي.. ما الشيء المميز فيه عني؟ هل يقدرك ويحترمك مثلي؟ هل يخاف عليك مثلي؟ هل يشتاق إليك ويحبك أكثر مني؟

قالت بأسف وتوسل: أرجوك لا تُصعّب عليّ الأمر، لا بد أن أمشي الآن.

قامت وتهيأت للذهاب.

صرخ فيها: كيف تفعلين معي هذا وقد حميتك؟

التفتت إليه غير مصدقة، وقالت وعيناها تحدقانه في ذهول: ماذا قلت؟!

- نعم.. لقد حميتك من المتحرشين، أنسيتِ أم تريدين تذكرة؟ أنا من حماكِ منهم وسترك، ولولاي لكانوا نالوا منك.

وتمكنت السكين من قلبها.. ضعفت ركبتها ولكنها تحاملت لتبقى صلبة، وقالت بصوت مرتعش يمنع الدمع من الانهمار:

هل تُذكّرني بجميل فعلته لأجلي؟ لقد تصورت أنك فعلته محبة لي وخوفًا عليّ.. كم كنت حمقاء حين تخيلت أننا كيان واحد وما يؤذيني حتمًا يؤذيك..

رد بعلياء: أتعلمين؟ لم أكن قادمًا لسماع كلامك السخيف هذا، لقد أتيت عازمًا على فسخ الخطبة، لقد صادفت من تستحق المحبة أكثر منك.

وخلع الدبلة ومدّ يده بها إليها، تأملته للحظة..

ليس هو حسام الصبي البريء الذي كان يلعب معها وهي طفلة، ليس هو الفتى الشهم الذي أنقذها.. ليس هو الشاب المثابر القوي الذي يتحمل ساعات العمل مع المذاكرة لأجل فتاته، في قسمات وجهه شيء مختلف.. شيء دخيل على عذرية مشاعره الطيبة وأخلاقه السمحة..

تركته مادًا يده ولم تأخذها، واستدارت ومشت بعيدًا عنه، وأمطرت السماء.. لا تعلم ما إذا كان الماء المنساب على وجهها هو دموع قلب يتمزق جرحًا أم هو ماء أتى على قلب تأجج يومًا بالحب ثم أطفأه ليبرد نار ضوئه الواهي الذي لا يساعد على إنارة الأيام.

استدار هو أيضًا غير عابئ بالمطر الغزير وهو يستحضر وجهها، مازال فيها أمل.. مازالت طيبة، ولكن هناك شيئًا جديدًا على قلبها أدخلته الحياة فجعلها تُعرض عنه.

سمع صوتًا داخليًا يقول: لماذا أنت حزين ومكسور هكذا؟ كان هذا نفس الكلام الذي ستقوله لها.. لقد رفعت عنك الحرج والشعور بالذنب.

رد على هذا الصوت بحسم: ولكن لا تتركني هي.. لا بد أن أعرف من الذي حرك مشاعرها بعيدًا عني. أميرة لي وستظل لي حتى وإن أعرضت أنا عنها!

بعد دقائق انتهى المطر وتحركت السحابة الحاجبة للشمس، وأظهرت بضوء خافت معالم الطريق بعدما كانت تغطيه غيمة.. أسود يوم ظهرت فيه الشمس.. تجلت لتوضح طريقًا مشت فيه وحدها دامعة العين..

*****

ظل حاميًا غاضبًا لفترة، وبعدها هدأ قلبه مع مرور الأيام انشغالاً بالأخرى وكأنه مسحور، استمر معها فترة طويلة يسمع صوتها فيستعذبه.. ترتعش يدها في يده.. يتوهج قلبه فرحًا للقياها، يعيش في عالمها الرائع.

ورجعت هي يومها مصدومة منهارة غير مصدقة، أحقًا سمعت هذا الكلام منه منذ دقائق؟! وسألت نفسها سؤالاً مريرًا تخاف من إجابته:

هل حماها لأنه يحبها أم لأنها تخصه؟ هل دافع عنها لأنه شهم كريم أم لأنه يتصور أنها شيء يملكه؟ وهل إذا لم يكن يعرفها من الأساس هل كان سيخوض تلك المعركة لأجل فتاة تُنتهك؟!

وعادت إلى فارسها الذي أحبته وحرك فيها مشاعر الأنوثة.. مشاعر لم تلمسها بيدها في طفولتها، وأدخلها عالمًا ما كانت لتدخله من قبله..

رأته من بعيد يجلس وحده فتشجعت بالاقتراب، ولكن قطع طريقها شيء صدمها.. هاهو ينظر إليها.. يبتسم نفس ابتسامته الهاربة من الجنة إلى الأرض لتنير الحياة، وهي تأتي لتجلس بجانبه، وقفت أميرة تتأمل المشهد وحاولت إقناع نفسها بأن نظراتهما الحميمية ما هي إلا صداقة منذ فترة طويلة أو زمالة، وفاجأها عامر من خلفها: أميرة..

استدارت وحيته والصدمة مازالت تعلو وجهها..

- أريد أن أحدثك بشيء ما.

- تفضل..

- عرفت أنكِ وحسام انفصلتما وتم فسخ الخطبة، هو أحب فتاة أخرى وأنتِ أحببتِ آخر، وبما أني صديقكما منذ الصغر فلابد أن أعلمكِ بأشياء تجهلينها.

نظرت إليه قلقة.. تخاف أن يقول شيئًا يُحزنها ويزيد عذابها عذابًا. نظر إلى الأرض للحظة ثم قرر أن يتكلم:

حازم لا يحبك.. بل هو مجرد إنسان متلاعب بمشاعر الفتيات لا أكثر، أترينه هناك؟ هو الآن مع فتاة جديدة. فبمجرد إحساسه بأنك صدقتيه وتمكن من قلبك تركك وذهب لأخرى. ما هو إلا محب للمغامرة عديم النخوة.

ازدادت دهشة عينيها وتسيب جسدها واحتواها الصمت، وبدأت الدموع في الظهور في عينيها.

اهتز عامر بشدة لذلك وظهر التأثر عليه، وقال:

أرجوك لا تعذبيني بدموعك هذه، إنني أشعر بالندم لأني لم أقل لك منذ البداية، كنت أتخيل أن حبك لحسام سيحميك من التأثر بكلمات أي إنسان آخر، فلا تزيدي شعوري بالذنب بعذابك هذا.

تفحصت في عينيه للحظة.. قتلتها الشفقة الواضحة فيها، وصاحت:

أتريدني أن أهدأ وقد أدركت أنني أحببت إنسانًا مخادعًا وخُطبت لإنسان كنت بالنسبة إليه شيئًا يملكه؟!

- لا تقولي ذلك، لقد أنقذك حسام لأنه يحبك وليس لأي سبب آخر، ومن المؤكد أنه قال ما قاله لغضبه ولضياعك من يديه.

مشت من أمامه تسير ببطء يطبق على صدرها مشهد الأرض أمام عينها.. الهواء ثقيل.. صعب في دخوله وخروجه إليها. لم تشعر بالطريق.. فالتفكير والذكرى طغيا على بصرها، وتذكرت اليوم الذي ألبسها فيه حسام الخاتم، أعظم هدية إلى قلبها.. أتت من جهد وعرق وحب بريء لم تكن دنسته الأيام بعد، وأيام الخطبة الأولى وسعادتهما معًا بانتصارهما على أهلهما وظروفهما وعمريهما وعلى الناس جميعًا..

وأول يوم لها في الجامعة والمحاذير التي طرقتها أمها على سمعها قبل الخروج: لا تحادثي شبابًا.. لا تتكلمي مع فتيات غير محجبات.. لا تتأخري عن موعد أي محاضرة ولا تتأخري عن الرجوع عن الساعة السابعة، أي شاب يحادثك يكون ردك بمقدار الإجابة فقط، إياك أن تتخطي حدودك في التعامل مع حسام أثناء توصيله لك بعد انتهاء المحاضرات، وما هذا اللون الذي في وجهك؟ من أين أتيتِ بأحمر الشفاه هذا؟!

عندما كانت صغيرة.. لم تكن تعرف كيف يأتي البشر إلى الدنيا، ولكنها عرفت كل شيء من صديقاتها في المدرسة ومن تواتر المعلومات التي تقال هنا وهناك بين الفتيات، وغام رأسها في الأفكار.. فكما التقى والداها يومًا ليأتيا بها إلى الدنيا فلماذا لا يلتقيان لأجلها بعدما أتت؟ فكما احتوى رحم أمها خلاياها في البدء ودفّأتها وحمتها من كل شيء فلماذا لا تُكمل دورها بعدما خرجت إلى الحياة؟

واندهشت من حالها الذي لا ترى مثله، كل الفتيات والشباب واثقون من أنفسهم يعيشون قدرًا من الحرية والاستقلال والمسئولية، لم ترَ هذا التحكم في بيوت الكثيرات، حتى البيوت التي تصف نفسها بالبيوت المحافظة، فأهلها يدّعون ذلك ظنًا منهم أن إعطاء الثقة والحرية المسئولة للأبناء ما هو إلا انحلال غير مباشر!

وتذكرت يوم أن دخلت على أخيها حجرته ورأت من خلف ظهره على غفلة منه ما يشاهده على الكمبيوتر، لم تشعر بأي إحساس غير الحقارة والحيوانية، نفرت من المنظر.. إحساس قذر بالشهوة المريضة التي تُشعل القلوب ثم تترك أجمل ما فيها مجرد بقايا ورماد.

وتذكرت أول يوم رأت فيه حازم.. سعادة لا توصف وجمال يدغدغ أحاسيسها بريش ناعم أبيض رقيق، وهمسات قلبها تتحول إلى دقات عنيفة تريد أن تخرج قلبها من مكانه ليجري عليه دون تفكير، وحتى إذا بقي بين يديه فلم تكن لتبالي كثيرًا.. فأهم شيء أنها معه وفقط.

وتوقفت عن السير فوجدت نفسها واقفة على كوبري الجامعة أمام النيل، وكل من حولها ثنائيات ملتهبة المشاعر، والنيل ينظر إليها بوسعه وسماحته وتياراته الهادئة..

حاولت أن تلين بنفسها لأقصى درجة وترق للنسيم من حولها كأنها أصبحت جزءًا منه، فأغلقت عينيها وتنفست بعمق، وأسندت ذراعيها

على السور الحديدي المطل على النيل، وأحست بأن روحها ارتبطت بارتفاعات وانخفاضات المياه الطفيفة وأن جسدها أقل ثقلاً..

فقللت المياه ما بداخلها من ذكرى وألم...

ونظرت نظرة عرفان بالجميل للنيل والهواء اللذين يتحملان عنها أي حزن يمكن رميه بهما.

ولكن تهدم كل ذلك في لحظة وانتُزعت روحها الهادئة منها واختنقت بيد غادرة، أفاقت من لحظاتها الناعمة بلمسة خشنة شهوانية، وفتحت عينيها سريعًا لترى من الذي قرص مؤخرتها، رمقته بنظرة مستعرة وصرخت:

- أيها القذر الحقير..

فانقلب وجهه في جرأة وتحدٍ وصاح في استنكار: هل هذا الكلام موجه لي؟

انتفض جسدها غضبًا وثارت: أيها الحيوان السافل كيف تجرؤ على هذه الفعلة؟!

رد باستهانة: أفعل ما يحلو لي..

- هذا تفعله في حظيرة البهائم التي أتيت منها، ولكن في مكان عام مع البشر.. فلا!

ابتسم ابتسامة ساخرة واقترب وقال بصوت هادئ: أتريدين إقناعي بأنك فتاة محترمة وتقفين على سور النيل؟!

رفعت ذراعها وإصبعها في وجهه وصاحت: أقف في أي مكان أشاء وأنا فتاة محترمة رغمًا عنك وعن كل من هو مثلك، أما أنت وأمثالك فمكانكم حظيرة البهائم.

تحول وجهه إلى الغضب والشراسة وصاح: لا تكرري هذه الكلمة مرة أخرى وإلا قطعت لسانك أيتها الوضيعة؟

استحضرت كل ما بداخل فمها من لعاب وبصقت على وجهه، وهنا اكتشفت أن كل ذلك لم يكن بينها وبينه، لقد كان مسرحًا من البشر المشاهدين، ولولا أنهم منعوه من البطش بها لكان ضربها أو فعل أي شيء يمكن تصوره في عينيه الغاضبتين، أما هي فنظرت حولها في تيه وصاحت فيهم:

أتشاهدون من يتحرش بفتاة ويتجاوز حدوده معها ويسبها ولا تفعلون شيئًا غير المشاهدة؟!

ظهر صوته وسطهم: لولا أنهم منعوني عنك لكنت أدبتك، ولولا أنك ليس لك رجل يعلمك التربية والأدب لما كنتِ وقفتِ وحدك في الشارع، أما أنا فأرجل من أهلك كلهم.

ضاع عقلها غضبًا وصرخت: أنت لست رجلاً.. أنت حيوان قذر.

ووجهت كلامها لهم جميعًا: وأنتم لستم بشرًا.. أنتم بهائم.. كلكم بهائم، أنتم أيضًا حيوانات قذرة.

لوح أحدهم لها بالإشارة التي تعبر عن رؤية مجنون، وسمعت من يسبها ورأت من ينظر إليها باحتقار ومن يضحك عليها.

تركتهم ورحلت وهي تحاول إتيان الهواء إلى صدرها دون جدوى، تلفتت حولها.. مال النيل اسودّ لونه وبدا مخيفًا؟ والسماء أصبحت نارية حمراء، وأعلن جسدها عن تخاذله وتهدمه ولكنها قاومت حتى استقلت المواصلات ورجعت بيتها حزينة شاحبة.

سألتها أمها ولكنها تحججت بحجج واهية ودخلت لتنام، نظرت الأم إلى الأب وقالت:

أتتركها هكذا دون نصح؟ منذ اليوم الذي تركت فيه حسام وهي على هذه الحال.

– اتركيها، ستهدأ وحدها، الأيام كفيلة بمداواة أي جرح مهما عظم.

*****

مرت أيام يشوب ألوانها لون قاتم كالأحلام المزعجة...، غريب عنها ولكنه واقع يحيطها من كل جانب، وكلما زادت ضغوطها النفسية من الذكرى.. ذكرى الحب.. ذكرى العائلة.. زاد عزمها على النسيان، ليس نسيان الحب فقط ولكن نسيان كل ما يؤلمها ومحاولة التعامل معه بطريقة جديدة، وقررت التعارف على أصدقاء أكثر في محيط الجامعة، لماذا تحضر المحاضرات فقط وتتعامل بسطحية مع من حولها؟ لماذا لا تُوطد علاقاتها بزملائها وزميلاتها؟

فاختارت البعض لتتواصل معهم بصورة أكبر وانغمست في حياتهم.

**

تمنى الكثيرون محادثتها وصداقتها، وأمل البعض العمل لدى والدها.. ولكن كم طمع من الشباب في أكبر من ذلك، حيث داعبهم خيالهم الواسع في تصويرها كمشروع زوجة وصفقة رابحة ينهل منها ما يشاء ويحقق بها الكثير من أحلامه.

فتاة عادية.. هي ترى نفسها كذلك، ولكن كل من حولها يرونها بصورة مختلفة، جميلة.. ابنة رجل أعمال.. متفتحة الفكر.. روح مرحة لا تحمل حسابات واعتبارات البشر المعقدة.. تبدو متميزة دومًا وتفرض وجودها أينما حلت، ولكنها ظلت كخلية غريبة في نسيج واحد منسجم، وطدت علاقتها بأميرة رغم فارق النشأة والتربية والمستوى الاجتماعي.

هي سوزان أبو النجا ابنة حازم أبو النجا رجل الأعمال المعروف.. الكل ينظر لها كحلم لا يمكن تحقيقه، ولكنها ارتاحت لأميرة واكتشفت الثانية مدى تواضعها رغم ما يعبر عنه شكلها وطريقتها في الحديث مع الجميع.

حتى أفضت سوزان بشيء تخفيه عن الكل:

إني أتعذب..

ظهرت المفاجأة على وجه أميرة، فردت عليها سوزان:

الجميع ينظرون لأبي وماله ومركزه، لا أحد يتقرب مني لشخصي.

- هذا موجع حقًا.

- لا أستطيع الذوبان في الناس، دائمًا تعلو وجوههم تلك النظرة التي تفرق بيني وبين غيري، أحيانا أرى نفسي عالمًا منفصلاً لا علاقة له بما حوله، فأتلمسه بيدي.. وأدرك أن حياتي وجهين لعملة واحدة.. الحرية.. والضياع، وقد أختار أحدهما أو أُجبر عليه..

أطرقت أميرة رأسها تسمع شكواها..

- أشعر بالحرية حينما أكون نفسي وأتعامل بطبيعتي ويعاملني البعض كأني منهم، ولكن سريعًا ما يلاحقني الضياع حينما أكون وسط الناس الذين يعاملوني باحترام لأجل مركز والدي لا لأجلي، وكأني ليس لي شأن حقيقي بدون أبي، وكل ذلك يؤدي بي إلى إحساس واحد مرير.. الغربة.

شهقت ثم أخرجت زفيرًا من صدرها وقالت: أفكر في السفر لإكمال تعليمي بالخارج.

جزعت أميرة: ماذا؟! هل تستعينين على غربتك في بلدك بغربة في بلد أخرى؟ كفى سخفًا.. حاولي مرة أخرى.

ردت سوزان بحدة غير مألوفة في حديثها: كيف؟!!

- حاولي التبسط في كل شيء، ولا تلبسي أفخم الثياب حينما تذهبين إلى الجامعة، وحاولي التحدث مع الزملاء بأسلوبهم وطبيعتهم لا بأسلوبك.

- إذا حادثت الناس بطبيعتهم لا بطبيعتي سأصبح مسخًا لا وجه له، كما أني لا أقصد التفاخر إطلاقًا، فهذه ليست أفخم ثيابي كما تتصورين.

- الجميع يرونها كذلك.

- أخي يطبق ما تقولينه بالحرف.

- لم تحدثيني عن أخيك من قبل.

- هو مختلف عني.. فهو لديه مرونة عالية، عرف كل نوعيات البشر تقريبًا وتعلم بسرعة كيف يتقرب إلى الناس ويتكلم بكلامهم حين يقتضي الأمر ذلك، نام على الرصيف.. أكل مع أطفال الشوارع، راقص الجميلات في الحفلات، جالس أكبر رجال الأعمال على طاولة أبي، لذلك فهو لا يهتم بالمظاهر إلا في مناسبات محددة، سيارته وطريقة كلامه وملبسه.. كل ذلك يبدو عاديًا جدًا.

- ولماذا لا تصبحين مثله؟

- كل منا له طريقته في التعامل مع الناس، ولكن هذا جيد له، فأبي يشجعه على هذه المرونة، لقد أصبحت لديه خبرة في الحياة أكبر من أي ابن رجل أعمال مدلل.

أرادت أميرة إنهاء حديثها في هذا الشأن: هذا جيد فعلاً.

- قريبًا سأعرفك عليه..

*****

خرجت أميرة من إحدى محاضراتها لتجد أمامها زينب، فسألتها:

لماذا لم تحضري؟ لقد كانت محاضرة هامة، أنت تعلمين أن موعد الامتحانات اقترب.

- لقد شغلني شيء سأحكي لك عنه فيما بعد، ولكن المهم أنني أريد التحدث معك قليلاً.

- حسنًا.. هيا بنا نجلس.

جلست الفتاتان وبدأت زينب كلامها بسؤال:

ما رأيك في سوزان؟

تعجبت أميرة من السؤال للحظة ثم ردت: صديقة جيدة أرتاح إليها.

- ولكنها غير محجبة..

- ولكنها مؤدبة حيية، كما أنها متفاهمة.. فعندما أشعر بشيء يضايقني أحكي لها.

- هذا ليس كافيًا، لا بد أن يصدق عملها على قلبها، قلبها طيب.. نعم، لكن ملابسها..

وسكتت، فردت أميرة: تصوري أنني لم أتفرس في ملابسها من قبل! ولكن ليس لنا دخل، فربنا هو الذي سيحاسبها لا نحن، كما أني أحبها لميزاتها وفقط.

- وعيوبها؟

- ماذا عنها؟ كلنا لدينا عيوب.

- ولكننا - على الأقل - محجبات.

- إذن فلننصحها بالحجاب، وإذا لم تعمل بالنصيحة فهي حرة.

- حرة كيف؟ هذا فرض.

- ولكننا لا نملك غير النصيحة، لماذا لم تحاولي معها؟

أشاحت بيدها وقالت: نصحتها ولكنها أهانتني.

ابتسمت أميرة وقالت: لأن طريقتك في الحديث دائمًا فيها أمر.

- وماذا في ذلك؟ هذا أمر الله وليس أمري أنا.

- ولكنك بذلك تشعرينها بالنقص أو أنك أفضل منها.

- أنا بالفعل أفضل منها، أنا محجبة.. أواظب على صلواتي.. أحفظ القرآن كاملاً.. أحضر دروس المسجد ولا أضع زينة في وجهي.

تجاهلت أميرة ردها الأخير وسألتها: لم تقولي لي، ما الذي منعك عن حضور المحاضرة؟

- كنت في المسجد.

- عظيم، ولكن المحاضرة أيضًا مهمة.

- العلوم الشرعية أهم.

- ولماذا لا تؤجلي حضور دروس المسجد إلى بعد المحاضرة؟

- كانت في نفس الموعد، فهل تطلبين مني أن أؤجل علمًا دينيًا من أجل علم دنيوي؟

- أنت طيبة يا زينب، ولكن لا تتشددي في حياتك.

عادت زينب إلى النقطة الأساسية: لم تردي عليّ بشأن سوزان، إنها ترفض النصح، إذا ابتعدنا عنها كلنا ستشعر بخطئها.

ردت أميرة بتعجب: هل تريدين من الفتيات المحجبات الابتعاد عن غير المحجبات؟ ذلك سيجعل شيئًا من النفور والتكتل بين الطالبات قد يصل إلى العداوة ويتطور الأمر إلى أمن الكلية.

- لماذا تضخمين الأمور دائمًا؟

- زينب.. أنتِ حرة في اختيار أصدقائك بالمعايير التي تضعينها، واتركي سوزان وشأنها.

- طبعًا.. يجب أن تقولي هذا الكلام، فأنتِ صديقتها.

- إنني جائعة ومنهكة، سأذهب إلى البيت الآن.

ردت زينب بابتسامة: إذن أراكِ غدًا بإذن الله.

وفي طريقها إلى باب الكلية قابلت سوزان، فقالت لها:

إلى أين ذهبتِ؟ لقد تصورت أنك خارجة ورائي من المدرج؟

- قابلتني زينب وتكلمنا قليلاً.

مطت سوزان شفتيها بملل، ثم جاء شاب إليهما مبتسمًا ومد يده إلى أميرة بالسلام، فقالت سوزان بابتسامة واسعة:

أعرفك بعمر.. أخي الأكبر.. رسام وفنان كبير.

وضعت يدها في يده.. ثم ضرب أخته مازحًا في كتفها وهو يقول: لست فنانًا كبيرًا كما تقول، أهلاً بك..

قال الكثير من الكلام ولكنها تأملت فقط ابتسامته الواسعة الرجولية السمحة، رجع إليها وعيها على صوت سوزان يسألها:

هل سترجعين إلى المنزل الآن؟

شحب وجهها لتفاجئها بصوتها، وقالت: نعم.. نعم، لا تنسي كما اتفقنا، سأستقبلك في بيتي يوم الجمعة، أريد أن أعرفك على عائلتي.

ردت بحماس: حسنًا.. بإذن الله.

لامس صوته أذنها ثانية وهو يقول: فرصة سعيدة يا أميرة.

قطعت صورته برمشها الحازم لإنهاء الموقف وانصرفت، ورجعت إلى بيتها وهي تفكر طوال الطريق، ربما يكون إحساسًا خادعًا.. ربما هو مجرد احتياج للحب.. ربما..

*****

ونست بالفعل ما حدث ظهرًا، واسترخت في فراشها مساءً تفكر في فترة الامتحانات القادمة، ودخلت عليها أمها مبتسمة وجلست بجانبها على الفراش، لتقول لها بهدوء:

اليوم كنت في المسجد مع والدك، وبعد صلاة العشاء سمعنا درسًا من الشيخ يتحدث فيه عن العفة..

- عظيم..

- وتحدث عن تيسير الزواج وغض البصر والبعد عما يثير النفس للخطيئة.

- فعلاً، هناك أساليب كثيرة ينأى بها الإنسان بنفسه عما حرم الله.

- ومنها - بالنسبة للفتاة - أن تغض بصرها وتصون نفسها بأفعالها ولباسها، وقال بأننا نعيش في زمن الفتنة.. إذن فالنقاب فرض في هذه الحالة.

- مهلاً.. ما علاقة النقاب بالعفة؟!

- إنه يستر الفتاة بصورة كاملة فيحفظها ويصونها بعيدًا عن عين أي شخص قد يرى مفاتنها أو يفكر في التلاعب بها.

- لا..لا.. هناك خلط في الأمر، أكرر السؤال ولكن بطريقة أخرى: أليس من الممكن أن يكون لباس المرأة في منتهى الاحترام وعلى الرغم من

ذلك تسمح لأي شاب أن يدخل حياتها؟ ألا توجد بعض النساء اللاتي يختفين وراء النقاب لتفعلن الفاحشة؟

- أعوذ بالله يا ابنتي.. ما هذه الأفكار؟ الكثيرات من المنتقبات فاضلات.

- نعم أوافقك، ولكن ما أقصده أن الملابس ليست هي التي ستجعل الإنسان عفيفًا أو فاحشًا، بل هذا ينبع من داخله.

- ولكن لا بد أن يُصدّق العمل القلب.

- عظيم جدًا.. وماذا في الحجاب؟ أليس لباسًا فاضلاً محترمًا وكافيًا؟

- ولكن الشيخ قال إن النقاب يصبح فرضًا في زمان الفتنة، ونحن بالفعل فيه.

هزت رأسها في عدم اقتناع، وقالت لترضيها: حسنًا.

- لذلك فإني قررت ارتداء النقاب، واشتريت لك واحدًا في طريق عودتي إلى المنزل.

اعتدلت أميرة في جلستها وقطبت جبينها وقالت: ارتدي ما تريدينه يا أماه، ولكني لست صغيرة لأرتدي ما تختارين لي.

- هل هذه طريقة مناسبة تكلمين بها والدتك؟

- آسفة.. ولكن كيف تشترينه لي دون حتى أخذ رأيي؟ أأنفذ دون مناقشة؟!

- هذا أمر الله وليس أمري.

- أرجوك يا أمي لقد سمعت نفس الكلام ظهرًا. لا بد أن أختار ما أفعله بكامل إرادتي فأنا مسؤولة عن تصرفاتي، ولا يمكن أن أفعل شيئًا غير مقتنعة به حتى ولو كان صحيحًا.

- النقاب فضيلة يا بنيتي.

- ولكنه غير ضروري وليس فرضًا، وأيًا كان كلام الشيخ فأنا لست مجبرة على الانصياع، وملابسي محترمة بصورة كافية، وأي شخص يمكنه التجرؤ على المحجبات أو حتى المنتقبات مادام المجتمع لا يوجه إليه اللوم دائمًا في أي شيء، ولست مضطرة للضغط على نفسي لأننا نعيش في مجتمع حيواني من الذئاب، بل الذئاب هم من يجب ردعهم.

ردت الأم بملل: كلامك دائمًا كثير ورأسك عنيد باستمرار وتفتقدين إلى النصح والإرشاد.

- أرجوك يا أمي، اتركيني أختار حياتي بنفسي.

ضيقت الأم عينيها وقالت بتحدٍ: لا أعلم لماذا تعتبرينني عدوتك دائمًا، على الرغم من أنني أمك وأحبك وآمرك دومًا بالخير، وأقف جانبك،

ألا تتذكرين؟! اليوم الذي أنقذتك فيه من يديّ أم عامر رغم أن ما كانت ستقوم به هو أمر هام للفتاة؟

تراخت أميرة وأرجعت ظهرها إلى الوراء وتذكرت ذلك اليوم..

*****

صرخت صراخًا مفزعًا مما تتوقع أنه سيحدث، لا تفهم بالضبط ما ستفعله أم عامر ولكن كل ما تعرفه أنها ستقطع جزءًا من جسدها.. ضمت رجليها بشدة وتكورت في آخر الحجرة على نفسها وارتعدت كأنما تُساق إلى الموت..

*****

ثم انتبه ذهنها إلى حديثها مع أمها، وقالت:

كان لا بد أن تقفي بجانبي وتمنعيها عني لأنك من أحضرها ولأنك أمي ولا ترضين بذلك.

- ولماذا لا أرضى لك ذلك يا ابنتي؟ هل الختان حرام؟ أمك مختونة وصحيحة النفس والجسد كما ترين.

- أنا لا أتكلم عن الحلال والحرام، ما جعلني أمر بهذه الحالة من الصراخ الجنوني هو أنني أعلم ما فعلته تلك المرأة في ابنة جارتنا.

أشاحت بيدها وردت: إنها فتاة ضعيفة بطبيعتها.. لنعد إلى موضوعنا الرئيسي.

- وهل النقاب يا أمي هو الذي سيضع تاج العفة على رأسي؟ وهل لأني غير مختونة فإنني في خطر الانقياد إلى الخطيئة؟ أنتِ يا أماه مختونة وسترتدين النقاب.. إذن ما العلاقة؟

قامت من أمامها وهي تنفخ زفيرها، وقالت وهي تخرج:

كما توقعت.. أضعت وقتي في الكلام معك دون فائدة.

خرجت وأغلقت الباب وراءها، ولكنها فتحت بابًا جديدًا من التفكير داخلها.

*****

وفي اليوم التالي بعد انتهاء محاضراتها وقفت مع الزملاء، وحضر بعد قليل أخو سوزان.. عمر، وبعد تحيته للواقفين سألته أميرة:

لماذا غالبًا تأتي بعد انتهاء محاضراتنا؟

رفع رأسه إلى السماء نافخًا هواء الملل، وقال:

أختي الصغيرة ولا بد أن أدللها قليلاً وأوصلها معي إلى البيت.

ابتسمت سوزان، ثم أدخلهم في موضوع آخر:

هل قرأتم الجريدة اليوم؟

قال أحد الواقفين معهم: ماذا فيها؟

عمر: فيها خبر عن شاب في الثلاثينيات من عمره أعلن إلحاده.

ردت سوزان بلا اهتمام: وماذا في ذلك؟

صاحت أميرة باعتراض: ماذا في ذلك؟! أستغفر الله العظيم.. أيعلن إلحاده هكذا بلا خجل؟!

عمر: أنتِ لا تعرفين شيئًا عنهم.. بعضهم ليس بملحد حقًا ولكنهم لم يجدوا أجوبة وافية لأسئلتهم الوجودية، أو وجدوا أجوبة ساذجة، أو لم يجدوا أجوبة من الأساس، وما شأننا به؟ في النهاية من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

قلت حدتها قليلاً: نعم، ولكني أتكلم عن جرأته على إعلان هذه الخطيئة العظيمة.

عمر: هو يرى أنها ليست خطيئة وأن ذلك من حقه وإلا لما جاهر بالإلحاد، المشكلة تكمن هنا في أنه معرض للقتل، فمجتمعنا يلفظ هذه الفئة تمامًا، في رأيي هذا الخبر لا يستحق التركيز عليه إطلاقًا، وما

دخلنا في ديانته أو حتى إلحاده؟ رجل كفر أو آمن فهذا شأنه ولا يهم القراء في شيء.

أميرة: كل ما يقلقني أن هذا سيحفز بقية الملحدين على الظهور إلى السطح، فلندعهم يذهبون إلى الجحيم، وما يستحق التركيز عليه حقًا هو خبر عن ملحد آمن بالله، فذلك دليل على أنه تأثر بعظمة الإسلام.

عمر: عظمة الإسلام لا تزيد بإنسان جديد دخل فيه ولا تنقص بإنسان خرج عنه.

تدخلت سوزان: أرجوكما كفى نقاشًا.

وعدلت من شعرها ليميل على الجانب الآخر من وجهها واستكملت:

إن الجو خانق هنا.. أريد العودة إلى المنزل.

رد عمر بابتسامته: إذن.. هيا بنا، أراكم فيما بعد يا شباب.

ثم وجه كلامه لأميرة: أراكِ غدًا بإذن الله.

ارتبكت واحمر وجهها وقالت: أين؟

- أنسيتِ أن غدًا الجمعة؟ سأوصل سوزان إلى بيتك لزيارتك.

- آه.. نعم نعم.. يشرفني استقبالها.

وانصرفا، وبعد دقائق ألقت أميرة التحية على بقية الزملاء وانصرفت أيضًا.

انتظرت طويلاً لتركب الميكروباص الذي سيوصلها إلى بيتها دون جدوى، فرأت من بعيد الأتوبيس فاضطرت إلى ركوبه.. كان غير مزدحم، ولكن بعد قليل ازدحم أكثر وأكثر والركاب ساخطو الوجوه.. لا أحد يتزحزح لأحد وكأنهم حجر ثقيل لا يتحرك، حتى شعرت أن الجو خانق بشدة، ولكنها تحملت وصبرت.

تفاجأت بتلك اللمسة المختلسة الحذرة فانتبهت، نظرت إليه نظرة متفاجئة.. هو رجل لا يقل عن الخمسين من العمر، أبعدت نفسها بقدر المستطاع في هذا الزحام، ونفخت نارًا من صدرها، ولكن بعد دقائق انتبهت مرة أخرى ليده التي لامست خصرها بجوع وشهوة عارمة، فانتفضت وألقت بيده بعيدًا عنها وصاحت:

- احترم نفسك!

ظهر صوته من فمه ضعيفًا حائرًا: ماذا بكِ يا ابنتي؟

استمر صوتها العالي: ابنتك؟! أتتحرش بفتاة في عمر ابنتك يا ناقص العقل والدين؟! اقترب ميعاد آخرتك، هل هذا ما أعددت لها؟ احترم شعرك الأبيض.

نظر حوله مدافعًا: لم أفعل شيئًا.

صاحت امرأة فيها: هذا رجل في عمر والدك، كيف ينظر لك نظرة سيئة؟

وصاح راكب آخر: ألا تحترمين سنه؟ اتقوا الله وتأدبوا.

نظر إليها وقال بنبرة الناصح الأمين: بناتي في مثل سنك وأكبر، كيف أفعل بكِ ما لا أرضاه لهن، هداكِ الله وأراح فكرك مما فيه.

واقترب بيده ليربت على ظهرها فصاحت مرة أخرى: أبعد يدك هذه عني، إذا اقتربت مني سأقطعها.

غضب أحد الجالسين وهو يشيح بيده تجاهها وقال: أتكلمين والدك بهذه الطريقة؟

ردت بنفس لهجته: أأنت رجل؟!

انقلب وجهه وصرخ: نعم؟! أنا رجل رغمًا عنك.

- إذا كان في هذا الأتوبيس رجلاً واحدًا لما ترك رجلاً يتحرش بفتاة أيًا كان عمره.. لما ترك نساء وفتيات واقفات في هذا الزحام البشع، لما ترك كبار السن مثل هذا الرجل واقفين من الأساس، أنتم عديمو النخوة.

هبّ واقفًا واستعد للشجار، قائلاً: اتركوني أقطع لسانها عديمة التربية هذه!

ومنعوه الناس، ولكنها ردت:

أنا أكثر رجولة منك ومن كل هؤلاء، إذا كنت عديمة التربية فعلاً كنت سمحت لأمثال هذا وذاك أن يلعبوا بجسدي كما يحلو لهم، أما أنتم فعديمو النخوة والرجولة لا قيمة لكم.

صاح فيها كثير من الركاب بجملة واحدة: لا بد أن تنزل هذه الفتاة.

أوقف السائق الأتوبيس دون أن يحدد ماذا سيقرر.. ظل لدقيقة يشاهد الشجار، ثم حدد رأيه فجأة:

انزلي.. نريد إكمال أعمالنا ومصالحنا.. لعن الله هذه المهنة.

الآن أفسحوا لها حيزًا.. خطًا ضيقًا لتنزل.. تجمد جسدها للحظة بإحساس مرير بالضعف والوحدة والإهانة.. وحاولت المرور بين الأجساد المتلاحمة، وسمعت همهمات خافتة:

حرام يا جماعة.

والتفتت فرأت من ينظر إليها باحتقار ومن ينظر بسخرية.. كلهم يتفحصونها، وسمعت صوتًا آخر من الخلف يقول:

مجنونة.. ربنا يشفي.

ونزلت مهزومة القلب، موقف صغير يتكون من دقائق قليلة ولكن له ثقل عظيم عليها، فاجأها هواء بارد بعد أن خرجت من جو خانق، وسمعت صوت الحافلة تبتعد.. وتبتعد معها الحرارة.

وتعجبت من أين أتى هذا الهواء البارد وسط الحر!

ونظرت إلى نفسها.. لا.. لم تستطع النظر فدموعها المتجمدة في مقلتيها منعتها، فرأت أمامها صورًا مهزوزة من معالم الطريق، ثم هبطت دمعتين صامتتين تساقطت معها هذه الصور بكل ما تحمله من شوارع وبشر.. تساقط كل شيء حتى الأرض التي تقف عليها.

استعادت توازنها بعد دقائق، وحمدت الله على أن الطريق إلى المنزل أصبح قصيرًا، فاعتمدت على قدميها والطريق المهزوز من حولها، ولم تلاحظ ما في شارعها من ترتيبات وتحضير.

ودخلت بيتها ومن ثم حجرتها، وانفجرت في البكاء مطلقة لعينيها الحرية، فدخلت وراءها أمها لتهدئها وربتت على كتفها، وقالت بصوت حنون هادئ:

لا تحزني يا ابنتي.. أنتِ أفضل فتاة على وجه الأرض، ستتزوجين من هو أفضل منه ألف مرة.

هدأت دموعها قليلاً وتفحصت فيها متهدجة الأنفاس بعينين حمراوين، وقالت:

عم تتكلمين يا أماه؟!

- أعلم أنكِ منهارة لأن اليوم زفاف حسام خطيبك السابق على الفتاة التي أحبها من الجامعة، ولكن لا تندمي على إنسان تركك وراءه ولم يهتم لأمرك.. هو لا يستحقك.

حبست أنفاسها للحظة وشعرت بظلمة في قلبها، ولكن تمالكت نفسها وقالت:

أمي.. فليتزوج أي فتاة، لقد تركته ورائي أيضًا.

هزت الأم رأسها يمينًا وشمالاً شفقة على حال الفتاة، وقامت وخرجت مغلقة الباب وراءها.

وجاء الليل.. فأظلمت السماء.. وأنيرت الأضواء ودوت الأصوات العالية، ولكنها لم تشعر بكل ذلك، كانت أنفاسها ودقات قلبها أعلى ضجيجًا.

وتساءلت: لماذا أنا تائهة وحزينة؟ إنني لا أحبه. لقد تصورت أنني أحبه عندما كنت طفلة، ولكن مشاعري الآن اتخذت شكلاً آخر، هل قلبي مظلم لأنني فقدت حبًا لم يكن حبًا؟ أو زوجًا لم يكن ليصبح لي زوجًا؟ إنني لا أريده.. لا أريده.

وقامت لتحكم إغلاق زجاج النافذة، ونامت في فراشها واضعة الخُدّدية على أذنها، وألصقتها بها بشدة، ولكنها لم تستطع الهروب من أصواتها الداخلية.. وظلت على هذه الحالة حتى أعياها النوم..

**

فرحت بشدة عندما رأت سيارة عمر تحت منزلها وسوزان تخرج منها، وتمنت لو كان يجوز لها أن تستقبله هو أيضًا في البيت، وأشارت لها من الشرفة وذهبت لتفتح لها الباب لتستقبلها، ولكن انقلب وجه أمها عندما رأتها واندهشت عينا والدها.. أما طاهر فظهرت في عينيه نظرة إعجاب خبيثة وهو يحملق في جسدها.

دخلت معها حجرتها ودار بينهما الحديث وتغدت معها، ومضى اليوم سريعًا، وطوال هذه المدة لم تدخل الأم للفتاتين، وعندما خرجت سوزان إلى الصالة ومعها أميرة تودعها ابتسمت لها الأم ابتسامة باردة دون سلام، وخرجت من البيت لتجد سيارة أخيها تنتظرها في الموعد المتفق عليه.

نظرت أميرة إليهما من النافذة ولاحظت عمر وهو يفتح لسوزان باب السيارة وهو جالس على كرسى القيادة.. تأملته.. وتأملتها وهي تبتسم له، ولم تطرف عيناها إلى أن ذهبت السيارة بعيدًا.

ثم أغلقت النافذة لتسأل أمها عما بها:

ماذا بكِ يا أماه؟ أراكِ متغيرة.

ردت بقرف: ما هذه البنت المائعة التي تصاحبينها؟

- مائعة؟!!

- نعم مائعة متبرجة، ألم تلاحظي ملابسها الضيقة؟ فضلاً عن أنها غير محجبة وابتسامتها وأصباغ وجهها.

ردت أميرة بنفاد صبر: لا أفهم ما المشكلة في أن يكون لي صديقات غير محجبات؟ كما أن ملابسها ليست خارجة عن الأدب.

رمقتها أمها بنظرة حادة: هذا حرام!

- ليس من حقنا أن نجبر غيرنا على الحلال.

- ولكننا نستطيع اختيار أصدقاء محترمين.

- أمي.. كيف حكمت عليها دون أن تعرفيها؟ أنتِ حتى لم تتكلمي معها وهي في بيتنا.

- الفتاة التي تلبس ملابس ضيقة غير محترمة.

- أرجوك لا تقولي هذا، أنا قابلت فتيات ملابسهن واسعة ولا تضعن أي زينة في وجوههن ويفعلن ما يحلو لهن في الخفاء.

- لا تتفلسفي.. ليس معنى ذلك أن كل المحتشمات يفعلن الفاحشة في الظلام، ولكن كيف عرفتِ هذه الفتيات سيئة السمعة؟!

- الجامعة فيها من كل لون.

- أراكِ تدافعين عن صديقتك هذه بشدة، يومًا ما ستقولين أريد خلع الحجاب مثلها.

- أنا مقتنعة بالحجاب ولن أخلعه أبدًا.

- المرء على دين خليله، هل لاحظتِ نظرات أخيك طاهر إليها؟

- هذا لأنه لا يترك فتاة في حالها أبدًا، سواء في الشارع أو في الجامعة أو أي مكان.

- لو كانت تلبس ملابس محتشمة ما كان الرجال لينظروا إليها.

- رجال؟!

- تقصدين أن أخاكِ ليس برجل؟ هو رجل رغمًا عنك، يفعل ما يشاء، أما الفتاة فواجب عليها صيانة نفسها.

ثم زفرت زفرة عالية وقد نفد صبرها، وأعقبت: بدأت أكره بشدة النقاش معك، فلتصادقي من تشاءين، ولكن لا تحضريها إلى هنا مرة أخرى.

وقامت الأم ودخلت حجرتها وتركتها وحدها حائرة للحظة، فخرج طاهر من حجرته وقد سمع آخر الحديث فقط، وقال لها:

اتركيها لي سأحاول إقناعها لتأتي مرة أخرى، ولكن أخبريني هل هي مرتبطة؟

زفرت نفسًا طويلاً غاضبًا وهزت رأسها يمينًا ويسارًا، وقامت دون أن ترد.

*****

انقضت أيام جرّت وراءها فترة طويلة لم تستطع خلالها تحديد مشاعرها نحوه، ولكن كل ما تعلمه جيدًا أنها تشعر بالسعادة حين تراه، لا تريد أن تتركه أبدًا وتستعر النار في قلبها إذا حادث غيرها، تشعر في صوته بالحنين وتحس في عينيه بالسكن، وفي النهاية اعترفت لنفسها...

أحبته..

لا تعرف كيف جذب روحها نحوه رغم أنه غير مختلف في شيء عن الآخرين، وأحمد الشاب العادي البسيط الذي اشتعل به قلب سوزان كان يبوح لها مرة بإعجابه ويُعرض عنها مرات، بوح من نوع خاص.. تصرفات وأفعال لا أقوال، كان يحكي لها بكل بساطة ودون خجل عن مستوى عائلته وحياته اليومية، تمنى وعاش معها أحلامًا باتت خائبة أمام واقع مرير كل ما يطلبه المال ولا يُعز إنسانًا..

ظهر أمامها عزيز النفس غير محتاج لها ولأموال والدها، برز لها طابعه الرجولي الذي لا يذل نفسه للأنثى أبدًا، وفي يوم فاضت عنها مشاعرها حينما أبحرت في عينيه فوجدت مرساها، وعبرت له عما بقلبها نحوه.. أمسك يدها وضغط عليها ضغطة خفيفة تشد من أزرها أوحت لها أنه يعيش نفس حالتها وأكثر..

تكررت لقاءاتهما وتقاربهما حتى أتى ذلك اليوم، كانت سوزان مازالت في بيتها، فاتصلت بها أميرة:

- لا تذهبي إلى الكلية اليوم.

- لماذا؟!

- يجب أن أقابلك خارج الكلية لأخبرك، ولكن أرجوك لا تذهبي اليوم..

- حسنًا..

ذهبت سوزان إليها في المنزل - وحدها دون عمر - تتابعهما نظرات أمها بعدم رضا، حتى أغلقت أميرة باب حجرتها.

جلست سوزان واستفسرت: ماذا حدث؟ كلامك أقلقني.

حارت أميرة وتوترت.. لم تعرف كيف تبدأ: أعطني هاتفك.

أعطتها سوزان هاتفها وبعدة ضغطات بسيطة دخلت بها أميرة على الإنترنت، واتضح لصديقتها كل شيء، فسمعت كل ما دار بينها وبين أحمد، وما باحت به إليه من حبها وسعادتها معه. مقطع صوتي سمعه الجميع على موقع (اليوتيوب) جعل مشاعرها الخاصة مباحة لكل الناس، مادت بها الدنيا وضاع إحساسها بجسدها... هل جربت من قبل إحساس البرد القارس في طريق لم تجد فيه إلا إنسانًا واحدًا أحببته فخلع عنك رداءك الوحيد الذي تحتمي به من قرص البرودة المؤلم، فتعريت أمام الجميع؟ إنك الآن ضعيف.. عارٍ.. لا تستطيع حماية نفسك من أي شيء، كذرة هواء عفّرتها الرياح وأضاعتها عن أرض الوطن.

أفاقت بعدها على وجه أميرة الذي أطل عليها بجزع هي وأمها.

- أأنتِ بخير؟!

كم هو سؤال ساذج في لحظة كتلك، حاولت التحكم في أطرافها فلم تستطع..

- ارتاحي ولا تقومي إلا إذا كنتِ مستعدة لذلك.

- سلامتك يا ابنتي..

قالتها الأم بلهجة فيها ضيق وشيء من السخرية، ثم تركتهما وخرجت.

جلست أميرة بجانبها تشاهد عينيها المفتوحتين عن آخرهما من الصدمة، عينان لا تستطيعان البكاء ولا تقدران على النظر..

- حقير.. لا تحزني على شيء، كل ما كان في المقطع عادي، ليس فيه ما يسيء إلى سمعتك.

همست بوجه خالٍ من أي اختلاجة: أريد العودة إلى بيتي.

وكررتها بصوت خافت تخنقه الدموع.. هي الآن تواجه بشاعة الحقيقة، فالذي أحبته أزاد من غربتها ومكن حسرتها منها، فمشت دون كلمة واحدة وعينا الأم ترمقها بنظرات ساخطة..

- أميرة!!

صاحت بها الأم فجرت الفتاة إليها في قلق وجزع: ماذا حدث؟!

- كيف تأتي صاحبتك هذه إلى هنا؟ ألم أقل لك لا تحضريها إلى البيت أبدًا؟

لم ترد ودخلت حجرتها مطرقة الرأس لما حدث لصديقتها.. أدركت أن هناك همومًا أنثوية أكثر ألمًا وأشد ضغطًا من حمالة الصدر الجاثمة على صدرها.

*****

الكل أصبح ينظر لها كعاهرة، لا تعلم ماذا أضاف أحمد لما قبل في المقطع من خيال ليصل الأمر إلى هذا الحد، ولكن كل ما تعلمه جيدًا أن الحياة في مصر أصبحت جحيمًا تتجرع مرارته في كل مكان فيها، لا تستطيع تناسي أنها ابنة رجل الأعمال حازم أبو النجا الذي يتحدث الناس عنه وعن أهل بيته ليل نهار، وها قد وجدوا مادة جديدة للحديث عنه.. مادة قذرة.. واستغل خصوم والدها تلك المادة ليطعنوه في سمعته.

واستعانت على حبس نفسها في البيت هروبًا، ولكنه كان هروبًا من الجحيم إلى الهاوية، فالأكثر عذابًا من تلويث سمعتك.. التفكير، كان عذابًا صُبّ فوق عذابها، انهيار لكل ما فيها.. خلف أجزاء متناثرة حادة في نفسها تُقطّعها من الداخل، إحساس مؤلم متسيد على كل ما كانت تركن إليه.. تقاومه باستمرار ولكنه المسيطر.. الغدر.

انهارت أكثر إلى قاع الحزن، هي الآن فتاة سيئة السمعة في أعين الجميع حسب ما روجه عنها في جلساته، أحاطت وجهها بيديها فحبست عينيها خلف قضبان أصابعها المتوترة، ونظرت أمامها في ذهول.. ضغطت على وجهها أكثر وضمت أصابعها لتخاصم عالمًا فرض قسوته على روحها، فلاحقتها الحقيقة في ظلام عين مغلقة وعقل سجين، فباتت صراعات نفسها أشد وأعنف، وأحنى قلبها سؤال مجنون:

لماذا فعل ذلك؟ لماذا وقد أحببته بصدق؟! وكيف أتخلص الآن من العذاب الذي أحاطني؟

لم تتذكر كيف كانت ثورة أبيها.. ولم تهتم بتفسير حالته ما إذا كان خائفًا عليها أو على سمعته ومركزه، بل لم تهتم بأى شيء غير أن تسافر لأي بلد آخر في العالم لتُكمل دراستها.

ووسط بركان الغضب المتفجر في بيتها اتصلت أميرة لتطمئن عليها:

- كيف حالك الآن؟

- ميتة..

سكتت لبرهة ثم قالت: أتعلمين أن عمر ينوي قتله؟!

- أتتقبلين كلامي.. فنحن أصدقاء؟

لم ترد، فأكملت أميرة: أنتِ دائمًا كنتِ تدرسين في مدارس الأغنياء وحينما اختلطتِ بعامة الناس في الجامعة تعاملتِ بنظرتك أنت لا نظرتهم، حقيقة لم يكن صوابًا ما فعلتيه، كيف تحكين مشاعرك؟ كيف تبوح الفتاة بما في قلبها بكل هذه البساطة؟

- وهل الفتاة ليست إنسانًا يحب ويشعر؟ هل أخطأت حينما تكلمت عما لدي من مشاعر جميلة؟

- سوزان.. حبيبتي، لا أقصد.. أنت تعيشين في طبقة مختلفة عن معظم الناس، فتتصورين أن كل ما تفعلينه عادي، ولكنه غريب عن الآخرين، ما لا تعرفينه أن هذا الأمر بالذات معقد حقًا. فالفتاة في مجتمعنا إذا عبرت عن مشاعرها لشاب كانت كل الاحتمالات المتوقعة سيئة..

فإما هي ذائبة في هواه لا تستطيع التحكم في نفسها وأعصابها، وبالتالي سينظر لها الشاب دائمًا بنظرة أقل من نظرته لفتاة جثا على ركبتيه استرضاءً لها، أو أنها ليس لديها كرامة، وسيفسر ذلك بأنها تفرض شعورها عليه، والنتيجة ستكون متشابهة، أو أنه سيسايرها ويوهمها بحبه ليأخذ منها مأربه ثم تنتهي العلاقة بجملة واحدة: لم أجبرك على شيء.

أو أن يشك في أخلاقها ويفترض في عقله أنها معتادة على فعل ذلك مع الشباب، أضيفي على ذلك تلويثه لسمعتها وتفاخره بذلك أمام أصدقائه حتى إذا كانت صادقة حقًا في حبها له.

- بلد يعيش فيه الناس يجاهرون بمشاعر الكراهية ويخجلون من مشاعر الحب لا يلزمني، بلد يُفسر فيه الحب على كل هذه الاحتمالات القذرة ليس لي مكان فيه، وكل ما قيل لا أفهمه ولا يهمني، فإذا كانت القذارة تفرض نفسها على نفوس البشر لهذا الحد فمن الغباء أن نحني رؤوسنا لها ونطبقها على أنفسنا لنُحكم دائرتها علينا، وأولى بنا

ألا نتهم أنفسنا بالخطأ لأننا أحببنا بصدق وسط أناس لم يكن لديهم قدرة على الحب، وكل ما يقدرون عليه الشعور بالشماتة وترويج الإشاعات بكل بساطة.

- ولكن كيف سنمسك ألسنة الناس بعد أن شهّر بك؟ فأنتِ الآن تدورين بين ألسنتهم وكلماتهم الجارحة، كيف سنُرجع السهم بعد إطلاقه من بين يديه؟!

ردت عليها سوزان بابتسامة ثقة وضحت جلية في صوتها:

سنطمس ألسنتهم عما قريب ونغشي أعينهم بما يلهيها..

فلم يكن أمر اختفاء أحمد بعدها وحبسه في قضية خطف فتاتين قاصرتين واغتصابهما؛ صدفة، وتوالت التغطية الإعلامية عن إنجازات حازم أبو النجا، وبعد النقاشات التي اتهمت سوزان مرة وأحمد مرة والتباس الأمر على الناس عندما كُبلت أغلاله ؛ نُسي الأمر بعد شهر على الأكثر، وعادت الحياة لطبيعتها.. حتى الشباب في الجامعة أصبحوا يحادثون سوزان بكل احترام وحذر، فحين يدخل الخوف المعادلة.. لابد أن تنقلب رأسًا على عقب، ولكن الألم لم يفارق سوزان وأصرت على ما نوت فعله، ترك هذا البلد وراءها إلى غير رجعة إلا أيامًا قلائل قد تأتي فيها كزائرة.

وسافرت سوزان وخلفت وراءها صديقة حزينة..

**

مرت عدة شهور لا تختلف عن مثيلاتها، حتى أتى يوم غادرت فيه الجامعة مبكرًا لشعورها بمغص مفاجئ، كان يومًا باردًا.. أبت الشمس أن تظهر فيه، خرجت لترى الناس متكدسين انتظارًا للمواصلات في طريق مزدحم بالبشر والسيارات المكتظة، وتوقفت أمامها إحدى سيارات الأجرة.. كانت فيها مشاجرة بين السائق والركاب لأنه رفع سعر الأجرة، وتصاعدت حدة النقاش إلى كل أنواع الشتائم، خاصة عندما وافق البعض على زيادة الأجرة وعنفوا أحد المعترضين، وصاح فيه أحدهم:

نريد العودة إلى منازلنا، هل هذا جزاء السائق أنه يعمل في مثل هذا الجو؟!

واعتذر للسائق وأخذ يستسمحه ليكمل بهم الطريق، وانتهى الأمر بنزول المعترضين، ومع مرور الدقائق اشتد الزحام أكثر في الشارع فيئست من ركوب أي مواصلة، حتى فاجأها من يربت على كتفها من الخلف بخفة، ويقول:

أتريدين سيارة يا سيدتي؟

استدارت إلى السائل.. إنه عمر، ابتسمت وشعرت بالخجل وقالت:

لا.. أشكرك، سأنتظر أي وسيلة مواصلات.

مال على أذنها بمرح حتى ذاب نفسها في رائحة عطره وهمس: لا تخجلي مني.

جفّ ريقها وارتبك صوتها وهي تقول: لا أريد أن أتعبك.

ابتسم ابتسامة واسعة، وقال وهو يفرد يديه على جانب واحد في استسلام: لي الشرف يا سيدتي.

ضحكت من تصرفه هذا، ولم يسعها غير السير إلى سيارته التي كان قد رصفها على بعد خطوات، فتح لها باب السيارة.. زاد إحراجها عندما تغلغل عطره في صدرها أكثر وركبت، نظرت إلى جسده الخفيف وهو يتحرك أمامها ليفتح الباب الاخر ويجلس على مقعد القيادة، وقبل التحرك سألها:

هل تناولتِ غداءك؟

- لا.. ولكني فقط أريد العودة إلى المنزل.

ظهر على وجهه شيء من الإحباط.. ظلت صامتة لدقائق ثم قالت:

أيمكنني سؤالك عن شيء؟

- اسألي..

- لماذا كنت توصل أختك إلى البيت معظم الأيام؟ ولماذا أتيت اليوم وأنت تعلم أنها غير موجودة؟

- لأنه يجب أن أحافظ عليها حتى لا يتعرض لها أحد في سيارات الأجرة كما تعلمين، كما أنها متهورة وعجولة. فأخاف أن تقود سيارة بنفسها، ولا أعلم لماذا أتيت اليوم.. قد يكون حنينًا إلى وقت كانت فيه معي قبل أن تسافر..

- شيء غريب.. غريب جدًا.

- ما هو الغريب؟

- لا يوجد أخ يفعل هذا مع أخته الآن.

- نعم ولكني أحبها.. هي عصفورتي الجميلة وهذا واجبي.

تأملت ابتسامته الصافية وهو يقول كلماته الأخيرة وامتزجت في قلبها مشاعر مختلفة من بينها الدهشة والحزن الخفي.. أو الحسرة إن شئنا الدقة.

- ما الذي غيركِ؟

- غيرني؟!

- أميرة.. كل شيء بداخلك يظهر على وجهك. ما الذي جعلك تحزنين؟

أطلقت زفرة طويلة حارة وقالت ببطء: كنت أتمنى أن يحبني أخي مثل هذا الحب.

- أنا أخوك إن احتجتِ أي شيء.

كان صدى هذه الجملة في قلبها أن زادت حسرتها إلى أن تحولت إلى إحباط شديد، فافتعلت ابتسامة على فمها وردت:

طبعًا..

- إنني لا أجاملك.. أميرة.. فيكِ شخصية طيبة تجذبني، أريد التقرب منك، ما رأيك أن نكون أصدقاء؟

- الصداقة لا تُطلب من أحد، بل هي ظروف ومواقف تُقرب بين شخصين يحتاج كل منهما إلى الآخر.

رد بابتسامة بسيطة: غير صحيح، أنتِ من تختارين أصدقاءك لا الظروف.

- غريب..

- هل كل ما أقوله اليوم غريب؟

وأنهى سؤاله بضحكة خافتة..

- شكلك وأسلوب كلامك يوحي - اعذرني - بالسطحية واللامبالاة. ولكن كلامك يدل على أن لك مبادئ وشخصية محددة.

- طبعًا.. كل منا له مبادؤه حتى إذا كانت خاطئة. نصيحة.. لا تحكمي أبدًا على شخصية إنسان من شكله أو أسلوب كلامه، بل لا تحكمي على أحد من الأساس.

فكرت في كلامه ثم سألته: كيف تكون المبادئ خاطئة؟

- قد يضع بعضنا مبادئ له بوجهة نظر خاطئة، هذا غير ثابت ومختلف من شخص لآخر.

- كلام غير صحيح.. المبادئ والأخلاق ثابتة، ولا يغيرها ولا يضعها أحد حسب رؤيته الشخصية.

وقفت السيارة في إشارة شارع مزدحم، فسألها: ما هي الأخلاق والمبادئ؟

- الحق.. العدل.. الخير.. الجمال.. الحب.. الكرم.. طيب المعاملة.. الصدق.

- جيد جدًا.. كلام مضبوط، ولكن مثلاً قد يكون للحق أوجه كثيرة، والصدق كذلك.

- كيف؟

- سأضرب لك مثالاً.. عندما يفصل الله بين العباد ويقضي بأن الناس المجرمين لابد أن يحاسبوا ويُلقوا في النار، سيقولون إن الشيطان هو المسئول وهو الذي أغواهم، فسيرد هو بأنهم هم المخطئون لأنه لم يُجبر أحدًا على المعصية، بل دعاهم فقط فاستجابوا له، كلامه صحيح وحق على الرغم من أنه الشيطان!! بل إذا ركزتِ قليلاً فستكتشفين أنه صادق في ذلك، فكلا الفريقين مسئولين، هو مسئول عن الغواية وهم مسئولون فيما ارتكبوه من إثم، لذلك فكلاهما يقول الحق.

- ماذا تريد أن تقول؟

أصبحت الإشارة خضراء، فانتبه جهة الطريق ليتحرك بالسيارة، وأكمل:

أريد أن أقول إن الحق والأخلاق لهما أوجه كثيرة قد تسمعينها من لسان فاجر تصمين أذنيك عنه، وهو يعرف هذا المنطق ولا ينكره، وقد يعمل به في بعض شئون حياته، كالسارق مثلاً الذي لا يستطيع خيانة صديقه.. هو سارق ولكنه ليس بخائن.

- والحب؟ ليس له ألوان.. فإما أن أحبك وإما أن أكرهك.

سكت قليلاً.. كانت لكلمة (أحبك) وسط الكلام تأثيرًا مبهمًا في نفسه، ثم رد عليها:

الحب أيضًا يختلف من إنسان لآخر، بعض الناس الحب بالنسبة لهم أقوال فقط، وبعضهم يُعبر عنه بالفعل فقط، وبعضهم أقوال وأفعال، وهناك نوع من الناس حدوده في الحب هي النظرة البعيدة الصامتة، وهذا النوع من البشر ضعيف يكتفي بالحب العذري، وهناك نوع آخر لا يضع حدودًا في الحب، والتعبير عن الحب له صور مختلفة، فستجدين من يكتفي بلمسة يد أو قبلة أومن يزيد إلى ما وراء ذلك.

- الحب بالأقوال فقط ليس بحب، كما أن ما وراء ذلك ليس حبًا أيضًا.. إنه شهوة وفقط، الحب إذا دخل إليه عنصر الجسد سيُفسده ويشوه معانيه الجميلة.

ابتسم وقال ببساطة: إذن سنمنع أي رجل من الاقتراب من زوجته حتى لا تفسد مشاعر الحب بينهما.

كانت على وشك الرد، ولكنها انتبهت إلى الطريق فقالت:

أنزلني هنا، لقد اقترينا كثيرًا من الشارع.

رد ببساطة: وماذا في ذلك؟!

امتلأت دهشة وردت بسرعة: ماذا في ذلك؟! سيشاهدنا بالطبع أي أحد يعرفني وتنقلب كارثة على رأسي.

- ولكننا لا نفعل أي خطأ، هل ترهبين أن يعرف أهلك أنني أوصلتك إلى المنزل؟

صاحت: طبعًا!

- حسنًا.. حسنًا.

أوقف السيارة وقال بابتسامته الهادئة: كنت أتمنى أن يطول الطريق حتى نُنهي حديثنا.

ردت بابتسامة مماثلة وفتحت باب السيارة وقامت:

لا بأس.. أشكرك على توصيلي.. إننى أقدر ذلك فعلاً، وآسفة أنني أخرتك معي.

- لا تقولي ذلك.. ألا يقف الأصدقاء بجانب بعضهم؟

- كنت أتمنى أن تشرب شيئًا في بيتنا ولكنك تعلم الظروف.

- لا عليك.. أراكِ فيما بعد.

*****

وبعد أسبوع بدأت الامتحانات النهائية، أمضتها ناسية ذلك اليوم، هو بالنسبة لها يوم كأي يوم، لا شيء مميزًا فيه، وبعد شهر ونصف أخذت نفسًا عميقًا وانتهت من الامتحانات، وتمنت في أعماقها أن تنفجر الكلية بما فيها بعد ظهور النتيجة حتى لا ترى الأجيال القادمة ما رأوه من عذاب التعليم.

وكانت تطمئن باستمرار على سوزان في بلدها الجديد، حيث سافرت إلى أمريكا مخلفة وراءها ماضٍ أرادت محوه بمستقبل قد يكون فيه ما كانت تأمله في بلدها..

وفي آخر يوم من الامتحانات كلمت سوزان أميرة في دردشة (الفيسبوك) واستأذنتها أن تعطي رقمها لعمر، واتصل بها ليلاً.

سمعت صوته: كيف حالك يا أميرتي؟

- عمر؟

- نعم أنا، كيف حالك؟

- أنا بخير.. الحمد لله..

أرادت أن تقول شيئًا ولكن ارتبك صوتها وسكتت..

- كيف كان أداؤك في الامتحانات؟

- جيد، أنتظر النتيجة الآن لأتخلص من هذا القلق الشديد.

- ما رأيك لو خففت عنك هذا القلق؟ أتحبين مشاهدة الأفلام؟

- نعم.. ولكن أهلي غير مولعين بها، أحيانًا أسمع أمي وأبي يقولون إن مشاهدتها حرام.

- لقد سألتك عن رأيك أنتِ لا رأي أهلك.

- إذا قلت لك أنني أشاهدها، فماذا إذن؟

- أنا وأصدقائي نتجمع في بيت واحد منا كل أسبوع، ونقوم بعرض فيلم نشاهده معًا، فما رأيك في الانضمام إلينا؟

- لا يمكن.. مستحيل أن أذهب إلى بيت شاب أو حتى فتاة لا أعرفها.

- كلنا موجودن معًا.. إذن سأقترح عليهم الخروج إلى السينما بدلاً من البيت.

- لا يمكنني أيضًا الخروج مع مجموعة شباب وفتيات.

- فكيف تستمتعين بأوقات فراغك إذن؟

- أقضيها غالبًا في المنزل، قد تزورني إحدى صديقاتي أو نزور بعض الأقرباء، أقرأ كتابًا.. أشاهد فيلمًا.

- أميرة.. هل تتصورين أن أي تجمع شباب مع فتيات يحوم حوله الشياطين؟ نحن أصدقاء فقط ولا نفعل شيئًا مخلاً.

- قد يتجمع الشباب مع الفتيات دون أن يفعلوا شيئًا مخلاً، ولكن الأهل والناس يتصورون ذلك ويتهامسون بخصوصهم، هل يوافق أهلكم على ذلك؟

- آخر لقاء بيننا كان أهل الصديق ووالديه مشاركين معنا ليلتنا، كان نقاشًا حول كتاب اتفقنا على قراءته في المرة السابقة، إننا نجتمع لمشاهدة فيلم.. لمناقشة كتاب أو نسمع شيئًا من ألحان صديقنا الفنان.. سأعرفك به، أو حتى نجتمع لنطمئن على بعض، أهم شيء أن نحرك الركود الذي داخلنا حتى لا يقتلنا الملل.

صمتت أميرة تسمعه.. وتفكر.

- ما رأيك؟

*****

وقف ينتظرها في المكان الذي اتفقا عليه، مكان يبعد عن بيتها كثيرًا.. الخوف والقلق يعلو وجهها وهي آتية إليه، رآها من بعيد.. فاستقبلها بوجه مبتسم متحمس، وما إن اقتربت منه حتى قالت بصوت رقيق خجول:

كيف حالك يا عمر؟

ومدت يدها إليه في حركة تلقائية، ولكنه نظر في عينيها لثانية ثم مد يده وأدار يدها في رقة وانحنى ليقبلها ببطء، ثم رفع رأسه فوجدها تتأمله وقد سرحت في تفاصيل وجهه، وتمنت لو أنه كررها، فحتى لو فعلها ألف مرة ما ارتوت من هذا الشعور الرائع، حاولت التماسك بأقصى ما لديها من قوة، وأشار إلى السيارة وقال: تفضلي.

وفتح باب السيارة وهي في ذهولها تسأل نفسها:

هل يوجد رجال يتعاملون بهذه الطريقة؟! إنها لم ترَ أبدًا والدها يعامل أمها بهذه الرقة، حتى المتزوجات اللاتي تعرفهن ترى في وجوههن عدم السعادة باستمرار.

كان ينظر إليها كل لحظة ويبتسم، حتى قال بما يشبه الهمس:

أنتِ اليوم أجمل من أي مرة رأيتك فيها.

أخذت نفسًا عميقًا لتبدو متماسكة، فهذا كثير.. فوق احتمالها، كم هو حانٍ.. بارع في إبراز أنوثتها.. خاصة أنها لم تعتد ذلك، وكم هو جذاب.. ذو شخصية قوية وفكر متفتح وثقته بنفسه تسحر اللب وتمحيه من الوجود في لحظات.

غادرا السيارة ودخلا البناية وركبا معًا المصعد، فقالت له:

أرجو ألا تنسى.. لا تأخير عن السابعة.

ابتسم متفهمًا ودخلا المنزل وعرفها على الموجودين، كان هناك أربعة شباب وخمس فتيات، لم تحس بالألفة أو المودة ناحيتهم، ولكن كل ما دخل رئتها من هواء الجلسة هو الغربة والضيق، أحد الموجودين كان ممسكًا بجيتار في يده منسجمًا معه، رفع رأسه تحية لأميرة وقال بابتسامة: رامز..

بادلته التحية وتضاءل قليلاً إحساسها بالضيق حينما بدأ في العزف والغناء، اخترق صوته قلبها وهشم ما به من غربة، سمعت منه أغنية (علّي صوتك بالغنا) لمحمد منير وكأنها تسمعها لأول مرة، ورفع رأسه إليهم مبتسمًا بعد ما غنى (ولا حلم نابت في الخلا.. في الخلا)، فتفاعلوا معه وغنوا، فوجدت نفسها تغني معهم..

(تداوي جرحي اللي انجرح.. اللي انجرح)

فرحت من قلبها وتمايلت مع الكلمات (ترقص؟! أرقص.. غصب عني أرقص.. غصب عني أرقص)، شعرت أنها منهم في تلك اللحظة ودخلت في نفسها السعادة، وبدأ الفيلم بعد انتهاء الأغنية..

كان الفيلم أجنبيًا فكاهيًا، وبعد انتهائه سمعت من يحادثها من الشباب:

لم تتكلمي إطلاقًا منذ دخولك.

التفتت إليه وردت: الفيلم كان مسليًا.

فضحك بصوتٍ عالٍ، فقال له عمر بحزم: أميرة انطوائية بعض الشيء.

فرد الشاب بمرح: أحب الانطوائية!

أدارت رأسها لعمر، فسألها مبتسمًا: ما رأيك؟

- الفيلم مسلٍ كما قلت، ولكن لم تعجبني بعض الأشياء.

- مثل ماذا؟

- الفيلم به الكثير من النكات الخارجة.

ضحك عمر من هذه الكلمة وسأل: وأصدقائي؟

- أصدقاؤك..

قطع لسانها ما رأته في الركن البعيد من الصالة الواسعة..

فأدار عمر وجهه بسرعة نحو ما رأت وقال: ماذا؟

قالت هامسة: إنه يتحسس وجهها بزهرة ويقترب منها أكثر.

- هل الحب خطأ في رأيك؟

- لا، ولكن هذا المشهد مرفوض.

- مرفوض مِن مَن؟

- مرفوض من الدين.. العرف.. الأخلاق.. من أي شخص سويّ لا يقبل بذلك!

رد ببساطة: الإنسان السويّ هو الذي يترك مشاعره تنطلق ويعبر عنها دون قيد، وليذهب أي شخص آخر إلى الجحيم، وليحاسب نفسه قبل أن يُحاسِب الناس، أما التقاليد والعرف فواضعوها هم بشر مثلنا ماتوا واندثروا، فلا سلطان لهم علينا.

ردت بتحدٍ: والدين؟

- الدين لا يحرم الحب، ولو كان سيئًا فلِمَ خلقه الله في قلوبنا؟

سمعت صوت آذان المغرب فنظرت في ساعتها.. كانت لا تتعدى السادسة، فقالت ببساطة:

سأذهب لأصلي، أين اتجاه القبلة؟

ثم نظرت إلى الفتيات وقالت: هل ستأتين للصلاة معي؟

نظروا إليها جميعًا بتعجب ثم إلى بعضهم، فنظرت بدورها إلى عمر متسائلة، ففتح فمه ليرد عليها، ولكن هالها ما يفعله الشاب والفتاة في نهاية الصالة، فأطلقت من فمها صيحة دهشة، ونظرت لعمر بحزم وقالت:

أريد أن أذهب.

واقتربت من الباب وعمر وراءها، فسمعت من يسألها بسخرية:

هل ستذهبين قبل أن تُصلي؟!

*****

وفي سيارته صاحت بغضب:

ما هذا البيت؟ ومن هؤلاء الشباب وماذا يفعلون؟

- قلت لك هذا بيت أحد أصدقائي وأخبرتك من قبل ماذا نفعل، وأنتِ رأيتِ بنفسك وكنتِ سعيدة.

- ولكنك لم تقل لي ما يحدث بالضبط.

- أميرة.. أقسم لك إنه لا يحدث أكثر من هذا..

- لقد كان يتحسسها أمامكم.

- لا دخل لنا بهذا، لم أكن أعلم أنك متشددة إلى هذا الحد. قد تحبين يومًا ما وترتمين بين ذراعيّ من تحبين وتنسين من حولكما والعالم كله.. وأول ما ستنسينه أفكارك هذه.

صاحت هاربة من هذا الكلام: كما أنهم اندهشوا كثيرًا حينما سألتهم عن القبلة والصلاة.

- ليس لك أن تسألي أحدًا عن ذلك، فعلاقة المرء بربه شيء خاص، والله فقط من سيحاسبه عليه.

- علاقة المرء بربه شيء خاص وسري ولا يحق لنا الحديث عنه، أما علاقة شاب بفتاة فلا حرج عندكم أن تحدث على الملأ؟!

زفر زفرة قوية واستسلم للطريق، أما هي فنظرت إلى الجانب الآخر في غضب، ثم بالقرب من بيتها أوقف السيارة ووجهه متصلب ينم عن الضيق، وقال لها:

هل هذه مسافة مناسبة حتى لا يراك أحد؟

لم ترد واستمر صمتها، فأدار وجهه إليها بعدما هدأ وقال:

أميرة.. إنني أقدر تمامًا أنك تربيت في وسط مختلف وعشتِ حياة أقرب إلى التضييق في كل شيء، ولكن لابد أن تخرجي من هذه الدائرة المغلقة التي تعيشين فيها، فالبشر مختلفون و...

قاطعته بفتحها للباب وخرجت بسرعة قائلة: ليلة سعيدة..

*****

مالت الأفكار برأس عمر وشغلته في الأيام التالية، لماذا عاملته بهذه الطريقة؟ ما ذنبه؟ وهل قطعت بذلك علاقتها به؟ وما نظرتها إليه الآن؟

وفي عاصفة القلق هذه تساءل: لماذا أهتم بها كل هذا الاهتمام؟ ما الذي يميزها عن باقي الفتيات؟

وبعد عدة أيام تفاجئت برسالة منه، لم تهتم بها ورمت الهاتف على الفراش، ولما لم يتلقَ منها ردًا اتصل بها أكثر من مرة، فردت أخيرًا:

- نعم...

- أريد فقط أن أعرف ما هي جريمتي.

- جريمتك أنك أخذتني لبيت تصورت أن جلساته محترمة.

- لا تقولي ذلك فجلساتنا محترمة، وأنتِ وافقتِ على الحضور وأتيتِ بإرادتك.

ارتعش صوتها قائلة: لثقتي بك..

- وما ذنبي أنا إذا كانت بعض تصرفاتهم لم تعجبك؟

- عمر.. يبدو أنك متحرر أكثر مما أعتقد.

- وماذا تعرفين أنت عن التحرر؟ أنت مغفلة لا تعرفين شيئًا. فهناك من يقيم علاقات كاملة كما يريد، ويسهر ويلهو بين النساء والخمور ويفعل كل ما يشاء، أما أنا فأراقب تصرفاتي جيدًا. فلا تعامليني هكذا كأنك الحكيم الذي لا يُخطئ.

أسكتتها نبرة صوته الحادة، فلان لها:

سامحيني لشدتي معك، ولكنك أيضًا تخطئين.. كلنا نخطئ، هل تنكرين أنك ألفت قصة ما من خيالك لتخرجي معي؟

استمر سكوتها فقال: أميرة.. أريد أن أراك ثانية، أعدك هذه المرة لن يكون هناك ما يضايقك..

*****

تقابلا عند كورنيش النيل.. رد عليها السلام في تحفظ.. وأبصرت حولهما المحبين في كل مكان، ثم أرجعت بصرها إليه..

نظر إلى عينيها يلقي بتساؤلات كثيرة.. قالت:

عمر.. أريد أن أحكي لك عن البيئة التي أعيش فيها، أسرتي ليست بنفس مستوى أسرتك ماديًا ولا اجتماعيًا، ولكن الفارق الأكبر هو تحررك الشديد.

قاطعها: بل تحفظك الشديد..

- إنني من أسرة أكثر كلمة تناسبها أنها متشددة معقدة الفكر، منذ صغري وأنا أواجه حقيقة أن كل شيء بالنسبة للبنت حرام ولا يكون الشيء نفسه حرامًا على أخي، لابد أن أفعل كذا ولا أفعل كذا.. بل إنني أتلقى الأوامر في آلية شديدة دون إحساس بتدين حقيقي.

- ذلك ليس مبررًا أيضًا. هناك شيء بداخلك تخفينه في عينيك.. شيء خطير بالنسبة لأي أنثى وقد يكون مدمرًا لها.

قولي لي.. كم مرة شعرتِ أن والدتك تفهمتك؟

سرحت بعينيها بعيدًا تحاول التذكر، فواصل أسئلته:

هل ارتديتِ الحجاب بإرادتك أم بأمر من والدك؟ وكم كان عمرك وقتها؟

أشاحت بوجهها عنه لتفكر.. وقبل أن تستطيع التفكير أو التذكر ألقى عليها بسؤال آخر:

هل أحببتِ من قبل؟ وكيف كانت علاقتكما؟ وكيف هي معاملة أبيك لأمك؟

- أرجوك.. كفى، لقد أشعرتني أنني أمام وكيل نيابة وكأني متهمة.

- اعذريني.. أنا مهتم بك وأشعر بانجذاب شديد نحوك، فلا أطيق صبرًا حتى أفهم كل شيء عنك وعن حياتك.

- أتذكر نفسي وأنا طفلة تريد اللعب والصراخ والضحكات التي تملأ العالم سعادة رغم أحزانه، ولكنني سمعت كثيرًا من الجمل في بدايتها عيب وحرام، من يكذب سيحرقه الله، إذا خرجت شعرة من رأسك من تحت الحجاب ستصبحين زانية، لا تصادقي الأولاد، إذا تأثرتِ بشاب فستكون نهايتك هي طريق الضلال والمعصية..

انتقبت أمي واشترت لي نقابًا ألبسه دون حتى أخذ رأيي، كنت أتمنى أن يتركوا لي القرار في الهدى لا أن أُجبر عليه، لقد حوصرت منذ الصغر بإحساس الذنب حتى فقدت جمال الحياة في كل شيء.

تهدج صوتها وأعلنت عيناها عن عدم قدرتها على حبس الدموع أكثر من ذلك، وقالت: أخشى أن أعيش وأموت وحدي..

- لا تقولي هذا.. اهدأي، لا أريد أن أرى دموعك أبدًا..

وأخرج منديلاً ورفعه إلى عينيها ومسحها، ذابت خلايا وجهها تحت رقة يديه وتمنت ألا تنتهي الدموع حتى لا يُبعد يده عنها، وسر قلبها خفية لانزعاجه من أجلها، قال:

أنتِ الآن كبرت ولست طفلة، فقرارك بيدك أنت لا بيد أسرتك.

صمت للحظة مدققًا في وجهها، بلع ريقه وقال بحنان: كنتِ محقة عندما اعترضتِ على ما رأيتيه في شقة صاحبي، فالحب يأخذ رونقه الخاص حينما يكون همس المحبين سريًا.. هادئًا.. وليس أمام الآخرين.

- آسفة لم أقصد إزعاجك لهذه الدرجة.. لقد انفعلت و...

- لا أرجوك.. أنت جزء منى فإن لم أتأثر به فلا حياة لى.

*****

اعتدل في جلسته أمام عجلة القيادة واستعد..

- إلى أين سنذهب؟

- أريد أن أريك شيئًا..

وانطلق بالسيارة.. مرت نسمة باردة على وجههما ولكنها أحست بدفء غريب أراح قلبها وأسعدها سعادة لا توصف، حتى توقف أمام بناية بعد فترة من الوقت وقال: هيا بنا.

قطبت جبينها وقالت: إلى أين؟

- لا تقلقي.. حاولي أن تنزعي من رأسك فكرة أن كل الشباب شياطين، ثقي بي..

خرجت من السيارة وصعدت معه الشقة..

المكان مزدحم بأشياء مختلفة ولكنها تندرج تحت مسمى واحد.. تأملت كل ما حولها بانبهار، فقرأ ما في عينيها وقال:

هذه الشقة اختارتها أمي لأتزوج فيها ولكني أستخدمها في أعمالي.

كانت الصالة مملوءة باللوحات المرسومة بالقلم الرصاص فقط.. وجدت أيضًا آلات موسيقية ولوحات أخرى ملونة، فقال:

كلها أشياء تخص أصدقائي، إننا نعتبر هذه الشقة مكانًا يتحمل جنون إبداعاتنا مادام الكون لا يتحمله، ولكن تخصني فقط اللوحات المرسومة بالقلم الرصاص.

ردت بانبهار: أنت فنان رائع، بالقلم الرصاص فقط؟!

- وسوف أريك أيضًا الصور التي التقطتها، ولكني لست جيدًا في التصوير كما في الرسم، تفضلي..

وأدخلها حجرة على الجانب الأيسر.. اقتربت من الصور ولمستها بيدها وكأنها تريد الدخول في هذا العالم وتستجديه دون جدوى، نظرت إليه عاجزة عن الكلام، ابتسم وقال:

هل أعجبتك أعمالي.. سواء اللوحات أو الصور؟

صاحت في حماس: هذا إبداع حقيقي.. أشعر وكأنها حقيقية!

ابتسم ابتسامته التي تعرفها جيدًا وقال: هي حقيقية فعلاً، فكل ما حولنا مرسوم بريشة فنان ماهر.

سكتت قليلاً ثم رفعت رأسها وسألته: عمر.. عندما كنا نقف عند الكورنيش.. كيف عرفت ما أشعر به ودواخل نفسي قبل أن أبوح لك؟

- الفنان يا أميرة له إحساس عالٍ جدًا بما حوله، خاصة البشر، يملك مؤشرًا يجس قلوب الناس.. يكشف الحزين حتى ولو كان ضاحكًا، يرى الوجه الآخر من روحه.. الوجه الذي لا يراه الناس أبدًا، فما بداخلنا أغرب من الخيال وأكثر ظلامًا من القبور وأشد إيلامًا من الحقيقة، وكل ذلك يمكن التعبير عنه بريشة، فالفنان له نافذة لا تنغلق.. مفتوحة على نفوس البشر واضطراب أنفاسهم ونبضات قلوبهم ورعشات أجسادهم، يذوب في الطبيعة وتذوب فيه، ينصهر بكيانه وجسده فيها حتى يستطيع أن يقدم فنًا حقيقيًا، روحه حساسة لأي

شيء ويتأثر بكل شيء.. وقد أفاجئك إذا قلت لك إنني مهندس معماري..

احتلت الدهشة وجهها فجأة..

- لا تندهشي.. فالتصميمات أيضًا يجب أن يكون فيها روح وفن وليست مجرد بنايات بداخلها حجرات فقط، ولكن ما يسعدني حقًا في الرسم والتصوير أنني أُخرج الطفل المتمرد في داخلي، فلا أتقيد بحسابات هندسية ولا تصميم.. فقط النغم الذي يخرج من روحي على الورق، أعيش مقاييسي أنا.. لا مقاييس الهندسة.

تحسست كلماته بروحها.. اضطرب قلبها تأثرًا بلسانه وفكره، ابتلعت ريقها بسرعة وتحكمت في أعصابها، وأدارت وجهها إلى الحائط المقابل فرأت لوحات خجلت منها، فنظرت إلى الجانب الآخر، فقال عمر ضاحكًا:

ألا تحبين هذا النوع من الفن؟

- من قال لك إنه فن؟ وما الفن في ذلك أصلاً؟! إنها لوحات لنساء عاريات، هل الفن يعتمد على إثارة الغرائز أم السمو بالروح؟!

- في مجتمعنا يقرأون هذا النوع من الفن بالزاوية السفلية فقط من أجسادهم، يركزون على أجزاء معينة دون أجزاء، حتى لو كانت اللوحة

فيها عينان فقط لفتاة جميلة لكان ذلك سببًا لإثارة شهواتهم، المرأة ليست جسدًا فقط.

- ولأنها ليست جسدًا فقط، فهي عقل وروح، هل لابد أن نعريها لنرى روحها ونتأثر بإحساسها وعقلها؟ أرى أنها مهانة للمرأة أن نجردها من ملابسها وكأن جسدها لا قيمة له ينظر إليه أي إنسان تحت اسم الفن.

- أميرة.. جسد المرأة لا يُحرك الشهوة فقط، ولكنه أيضًا فيه رقة وعذوبة وجمال وحنان وأمومة وصفاء طبيعتها وأنوثتها، فلوجود الأنثى لمسة مميزة.. والصوت الناعم هو الأكثر جاذبية والأشد تأثيرًا.

- وهل يتجلى ذلك فقط وهى عارية؟! هذا انحلال.. على الأقل مجتمعنا يرفض مثل هذه الفنون.

ابتسم بطرف فمه بسخرية وقال: هذا ما تتصورينه، وحتى لو تصورنا أن الفن العاري انحلال، فلا فرق بين المجتمعات في ممارسة الانحراف بجميع أشكاله.. حتى العهر الفكري، ولكن كل يفعلها بطريقته، فالمجتمع المتحرر يمارس الانحلال على السطح دون خجل ويبرر لنفسه بالحرية، والمجتمع المحافظ يمارسه في الخفاء ويبرر لنفسه بالكبت، وما بين العلن والخفاء الكل يفعل ما يحلو له.

هزت رأسها غير مقتنعة وخرجت إلى الصالة ثانية، فقال:

هل مللت المكان؟

- لا بالعكس ولكني أريد الذهاب الآن.

وبعد نصف ساعة كانت تخرج من سيارته مبتسمة ومودعة.

*****

تكررت زيارتها لمكان جنونه الخاص.. وشاركته هذا الجنون حتى اعتاد على تأملها له وهو يرسم، ويومًا سألته:

كيف ترسم وجوهًا صادقة ومعبرة إلى هذا الحد؟

- وجوهنا تحمل الكثير.. أفراحنا وأحزاننا، انتصاراتنا وانكساراتنا.. فيها طريق تعثرنا فيه.. حب لم نخلص له، تحسر على ما فات أو حتى رغبة وإقبال على ما هو قادم، وجوهنا ملخص حياتنا.. بصمة لها ولنفوسنا، خاصة العيون.. فهي أبلغ من كلام الألسن وصراخها أكثر صخبًا من عويل الصوت على القلوب.. فيها معانٍ عميقة ورسل أوحت لها الأيام والأقدار، إنها الروح التي رسمت عليها السنين شيئًا أصعب من أن يقال أو يُفصح عنه..

- ولكن الناس ماهرون في إخفاء دواخلهم إن أرادوا حقًا إخفاءها.

- اعتقاد خاطئ.. فالوجوه تفضح خفايانا مهما حاولنا وضع أقنعة كثيفة عليها، ومهما رسمنا عيون صامدة فإن لكل منا شيئًا صريحًا لا

يقدر على طمسه، أميرة.. الحياة شفافة ولكننا نصقلها بتفاهاتنا المعتمة.

- والألم؟! فالناس يبغضونه ويجاهدون في إخفائه مهما كان صارخًا على وجوههم.

- بالعكس.. فأول شيء لا يستطيع الإنسان إخفاءه هو الألم، فهو ذلك الإحساس العجيب الذى لا نعرف أشر هو أم خير، ولا نعرف بأي الأوجه يقابلنا، يحتاج منا الكثير من التحمل لنواجهه، وهو لا يعرف كم هو قاسٍ حينما يواجهنا، وليس حقيقيًا أننا نبغضه، فالحب مثلاً من أعظم المشاعر الإنسانية الموجعة، ولكننا نخوضه بلا تفكير ونستسلم له بكل بساطة، بل ونستمتع به أيضًا، وقد نحب من لا يشعر بنا.. فكلنا يختار عذابه بيده.

شعرت أنها ضئيلة أمامه.. هو مهندس وفنان له حكمة ومعرفة بالحياة وهي ضائعة في بحوره، ضعيفة أمام بهائه الذي يزداد كلما نظر إليها أو تحدث.

- أنت فيلسوف.

- وأنتِ زهرة حزينة لم يقلل الحزن من جمالها شيئًا، ولكن إن استمر حزنها فسيضيع عطرها وستذبل وتموت.

- لك شخصية مستقلة بذاتها عن كل الناس.

- كل إنسان له ما يميزه وطابع خاص به ولكنك لا تجيدين فهم الناس.

- إذن فماذا أفعل؟

- اقرأي الوجوه.

سكتت تتفحص عينيه محاولة قراءته..

- حتى لو لم تجيدي هذه اللغة التي تُقرأ ولا تُكتب، فستجبرك الحياة يومًا على قراءتها في وجوه الناس وكتابتها على وجهك، انظري إلى المرآه وحدثي نفسك عما ترينه.

تاه طويلاً في عينيها وظهر الزيغ في عينيه واضحًا، واضطرب نفسه أكثر بعدما كان يخفيه وراء مناقشتها، حتى خجلت ونظرت إلى الأرض من طول تأمله فيها.

- في عينيك نقاء جميل، ووجهك مازال صفحة بيضاء رغم ما أرى فيه من خطوط حزينة.

أحس أنها قلب وإحساس مرق إلى أعماقه، فسكن وعاش فيه وتجلى في هذه اللحظة..

- أميرة.. أنا أحبك..

**

ما إن دخلت البيت حتى استقبلتها أمها قائلة: صديقتك تنتظرك منذ نصف ساعة..

- أي صديقة؟

- زينب..

سلمت الفتاتان على بعضهما بحرارة ودخلتا الحجرة، وبدأت أميرة بالكلام:

أعتذر عن تأخيري.. لم أكن أعلم أنك ستأتين.

- اعذريني.. لم يكن بإمكاني الاتصال بك، لقد وقع هاتفي وانكسر، سأصلحه قبل عودتي إلى المنزل، لا تهتمي.. أريد أن أعرض عليك أمرًا ما..

- خيرًا..

- كلنا نعلم أنك فتاة طيبة محترمة ورائعة والكثير من الشباب يتمنونك زوجة لهم، وأنا لي أخ أكبر مني بخمس سنوات، متدين.. حافظ لكتاب الله ويتعامل بما يرضيه، ويبحث الآن عن زوجة مناسبة، فلم أجد له أفضل منك.

تفاجأت أميرة بما قالت..

- أنتِ لم تخبريني من قبل أن لك أخًا، كل ما أعرفه أن لك أخوات..

- لم أكن أتحدث عنه كثيرًا لأنه أخ غير شقيق، فهو ابن زوجة أبي الأولى، واسمه معاذ، أما أمي فهي الزوجة الثالثة لأبي..

- لقد قلتِ لي إن أباك لا يزوركم إلا مرة واحدة في الشهر.

- هو مشغول باستمرار كما أن لديه بيوت أخرى.

- ولكن أليس شرطًا هامًا في تعدد الزوجات العدل بينهن؟

- إنه شرع الله..

- لا أعترض ولكني أتكلم عن العدل.

هزت رأسها وقالت: هذا ليس موضوعنا، إنني أكلمك عن أخي.

دخلت الأم وفي يدها كوبي العصير وقالت مبتسمة: ما رأيك؟

أميرة: ما رأيي في ماذا؟

الأم: فيما قالته لك زينب، أرى أنه مناسب، ولكن سنحدد له موعدًا مع أبيك أولاً.

خرجت الأم وأغلقت الباب.

التفتت أميرة لصديقتها في حنق وقالت: قلتِ لأمي قبل أن تقولي لي؟!

- وماذا في ذلك؟

- إنني هكذا أمام الأمر الواقع ولابد أن أقابله، كان يجب أن تأخذي رأيي أولاً فلا أكون آخر من يعلم.

نظرت زينب إليها بنظرة حادة وقالت: ولماذا لا تقابلين أخي؟

ارتبكت أميرة وردت متداركة ما قالته: أنتِ وأخوك لكما كل الاحترام، ولكني لست طفلة تكلمي والديها دون أخذ رأيها، فما أدراك أني لا أحب أحدًا آخر؟

- وهل تحبين شخصًا آخر؟

ترددت وقالت بحيرة: لا أعلم.. لا أستطيع القول بأنه حب، ولكنه ارتياح كبير وإعجاب.

- هذا ليس مؤشرًا لشيء، كما أن الفتاة إذا رفضت من ترضى خلقه ودينه تصبح آثمة مفسدة في الأرض، لأنها بذلك ترفض أن تعف رجلاً مؤمنًا، كما أنه سيكون أبًا فاضلاً لأولادك فيما بعد.

- ماذا أستطيع قوله إذا كنتِ قد أبلغتِ أمي؟

وشعرت كم هي تعيسة الحظ.. لم تأخذ الفرحة نصيبها من قلبها بعدما صرح لها عمر بحبه.

*****

اتصلت أميرة بعمر في اليوم التالي وقالت أثناء المحادثة بهدوء كاذب:

سيتقدم شاب لخطبتي غدًا.

صمت عمر طويلاً حتى تصورت أنه ثمة خطأ في الاتصال، فرفعت صوتها تناديه، فرد بصوت عادي:

ألف مبروك.

صاحت في غضب: ولم التهنئة؟ قد أقابله وأرفضه.

- أستأذنك يا أميرة.. آسف فلدي عمل كثير اليوم، سأتصل بك ليلاً بعد انتهاء العمل..

*****

دخلت حجرة استقبال الضيوف لتستقبل زينب وأهلها وأخاها.. العريس، لمحت وجهه خلسة وهي محمرة الوجه.. وجهه أبيض.. جسده نحيف.. بشوش.. ملتحٍ، معظم حديثه يستشهد فيه بحديث نبوي أو

بآية من القرآن، ارتاحت إلى حد ما.. وتدريجيًا أثناء الحديث انبهرت بعلمه بالدين، نظرت إلى أبيها فوجدته منبهرًا أكثر منها.

ثم قاموا جميعًا وتركوهما معًا ليتحادثا.. لم يغلقوا باب الحجرة وجلسوا بالخارج.

وبدأ الحديث: ما شاء الله.. يبدو أنك إنسانة فاضلة كما سألت عنك وعن عائلتك.

- أشكرك.

- ولكن للأسف ينقصك شيء واحد..

- وما هو؟

- أن ترتدي النقاب.. النقاب سيزين وجهك ويعلو بك في درجات الجنة لأنه عفة وسترة.

- كيف سيزين وجهي؟

- ليس بالضرورة أن ما يزين الوجه له لون جميل أو شكل لافت للنظر، فكفى أنه سيزين وجهك عند ربك.

- آمنت بالله.. ولكني لا أريد ارتداءه مع كامل احترامي لك.

- لماذا؟!

- حرية شخصية..

- أنت حرة في كل شيء، ولكن أوامر الله لابد أن ننفذها.

- هذا ليس أمر الله إنه أمرك أنت، فهو ليس بفرض لأرتديه.

- من قال لك إنه ليس بفرض؟! بل هو فرض فعلاً خاصة في زمان الفتنة الذي نعيش فيه، كما أنه أستر للبدن وأكثر عفة للمرأة..

- ألا ترى أن أول حديثنا كان عن النقاب؟ لم تسألني عما أحب وأكره في حياتي، لم تسألني عن نفسي.. هواياتي.. الأشياء التي أقضي وقتي فيها، كما أني إذا أردت ارتداء النقاب فهذا قراري وحينها سأرتديه لأرضي الله لا لأرضيك أنت.

- إذن ارتديه لترضي الله..

- ولكن الله لا ينظر إلى صورنا فقط ولكنه ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

دخلت الأم وقالت مبتسمة: ما الأخبار؟

ابتسم معاذ وقال: ابنتك ما شاء الله محترمة وفاضلة.. ولكنها مشاغبة قليلاً.

ألقت عليها أمها نظرة مستعرة وردت: لا يغرنك ذلك، فهي في الحقيقة مطيعة جدًا..

رد وهو يهز رأسه: أتمنى ذلك..

*****

وبعد انتهاء هذه الجلسة دخلت حجرتها آخذة نفسًا عميقًا، كانت حائرة.. تحاول تصور حياتها مع ذلك الشاب إذا وافقت عليه، وتفكر في عمر.. لماذا لم يفاتحها في أمر الزواج مادام غير محتاج للانتظار لأي أسباب، هل يوجد ما يخفيه عنها؟ هل يعطي لنفسه فرصة ليفهمها أكثر؟

طرق الباب ودخل عبد الظاهر، فاعتدلت وجلس بجانبها، سألها:

ما انطباعك الأول عنه؟

- لا أعرف.. من الجيد أنه متدين.. حافظ للقرآن.. يصلي، ولكني لا أعلم عن طباعه وأخلاقه شيئًا.

- مادام متدينًا وحافظًا للقرآن فسيعاملك بما يرضي الله.

- ليس شرطًا أن...

قاطعها بهدوء: طوال حياتك تعترضين على أعراف وبديهيات وتشاغبين، أحيانًا تنفذين دون اقتناع وأحيانًا تثورين، وعلى الرغم أني أرى أنه مناسب وممتاز إلا أني لن أجبرك على شيء، فالقرار الأخير لك، فأنتِ من ستعيشين معه.

وخرج دون انتظار رد منها.

أسندت ظهرها للوراء ثانية ورجعت للتفكير..

*****

لم ترد الاتصال.. فما تريد الحديث معه فيه لا يحتمل التأخير أو الحديث في الهاتف، هي تعلم جيدًا أين تجده..

طرقت الباب وفتح عمر، تفاجأ لرؤيتها.. كان يرتدي سروالاً قصيرًا وقميصًا داخليًا أسود.. أشعث الشعر ولكن لم ينتقص ذلك من وسامته شيئًا.

دخلت وجلست وجلس قبالتها، كان ينظر إلى الأرض.. لم تستطع تفسير وجهه، فتحدث: ماذا تريدين أن تشربي؟

- لم آتِ إليك لأشرب، إنني في حاجة للتحدث معك.

- تفضلي.

شعرت بأن كلامه رسمي ليس فيه الكثير من الود كما اعتادت.

- أمس كان عندنا شاب تقدم لخطبتي.

- أعرف..

- لم تتصل بي كما قلت.

- لم أرد إزعاجك، توقعت أنك ستكونين مشغولة للتحضير لهذا اليوم.

نظرت في عينيه.. كانت فيهما مسحة من الحزن..

- هو يوم كأي يوم بالنسبة لي.

- وماذا حدث؟

قالتها بلا تفكير: ألا تحبني؟!

أطرق رأسه إلى الأرض ثانيةً وقال بعد صمت قصير: نعم.

- إذن فلماذا لا تتقدم أنت لخطبتي؟

قام من أمامها ووقف في اتجاه النافذة وقال: لا أستطيع الزواج.

هتفت مصعوقة: لماذا؟! إنني أعلم جيدًا أنك من الناحية المادية ميسور الحال.

- ليست كل الأسباب المانعة للزواج أسبابًا مادية، فهناك حاجز نفسي داخلي.

صاحت بنفاد صبر: كيف؟!

- لم يكذب من قال إن الزواج نهاية كل قصة حب جميلة.. فإنه يقتلها بالاعتياد وملل السنين، إنه عدسة مكبرة لعيوب الطرفين، فيضيع الحب بين العيوب ويتلاشى الشوق مع الأيام والمشاكل وروتين الحياة، لا أريد أن أتزوج.

اعتلت الدهشة وجهها: لماذا تنظر للزواج بسوداوية هكذا؟

- لأن كل من حولي كان زواجهم عن حب.. أبي وأمي.. أخي وزوجته.. أصدقائي، كل من أعرفهم تزوجوا عن حب ثم مات الحب مع الأيام، فإذا كان الحب هو الخيال الجميل.. فالزواج هو الواقع المؤلم.

- ولكن ألا يوجد بينهم أي زوجين ازداد حبهما بالعشرة الطيبة؟

نظر إليها وقال هازئًا: بل أنت الطيبة يا أميرة.. بسيطة.. تتخيلين أن الزواج مثل الحب يكفيه مشاعر قوية ليعيش.. إنه يحتاج لتحمل وتضحية ومسئولية وصبر، مازلتِ صغيرة، لا تتصورين الحياة الزوجية بمسئولياتها ومتطلباتها.

- الحب أيضًا يحتاج لكل هذه المعاني وأولها الصبر.. هل ستعيش هكذا إلى الأبد؟! هل ستقضي عمرك وحيدًا؟

- الله أعلم.

- ولكنك بذلك أيضًا تقضي على حبنا، فلا يمكنك أن تحب إنسانة متزوجة من شخص آخر، فهو حب يائس سوف لا تحصل منه على شيء.

ابتسم ابتسامة باهتة منكسرة وقال: إذن فالنهاية واحدة.. أتمنى لك السعادة.

قامت من مجلسها غاضبة وعلا صوتها:

بل أنا التي لا تريد الزواج منك، حياتك متحررة.. تفعل كل ما تريد، علاقتك بربك مهزوزة، قل لي متى كانت آخر مرة أمسكت فيها مصحفًا أو سجدت لله؟ أتعلم؟! هو أفضل منك بكل المقاييس، وليس بعيدًا عنك أنك عندما تُحب تفعل بحبيبتك مثل ما كان يفعله الشاب بالفتاة في شقة صاحبك في جلساتكم البريئة! قل السبب الحقيقي لرفضك الزواج.. إنك مستهتر لا تريد تحمل المسئولية، ولذلك فإني لا أريدك زوجًا ولا أبًا لأولادي فيما بعد.

أجابها بالصمت.. ونظر إلى عينيها وقد تلاشت ملامح الاعتراض أو الموافقة من وجهه، كان الحزن هو المسيطر على هذا اللقاء القصير، وعندما لم تسمع منه أي رد أو دفاع خرجت وصفعت الباب وراءها، تاركة عمر وقد أظلمت عيناه وفرت منها دمعة كانت حبيسة.

**

تمت الخطبة في جو هادئ ليس به موسيقى صاخبة أو رقص، ولولا أن الأم أصرت على عمل حفل الخطبة مختلطًا لكان معاذ فصل الرجال عن النساء، ولكنها أكدت أن الجميع يريدون رؤيتهما معًا وهو يضع في إصبعها الخاتم.

على الرغم أن أميرة كانت مقتنعة به ولكن شيئًا بداخلها كان يشعر بالغربة.. بالحزن.. بالقلق، ولكنها حاولت جاهدة إقناع نفسها أن كل ذلك سيذهب مع تقاربهما مع الوقت.

وتوالت الأيام بعد ذلك وكثر حديثهما في الهاتف، وبدأت تتلاشى سحابات الغم من نفسها، وذات مرة حادثها قبل أن تنام.. قال:

- أردت أن أسمع صوتك قبل أن أنام.

- وأنا سعيدة باتصالك..

- ألا تُزيلين الحواجز في حديثنا ونتقارب أكثر؟

- كيف؟

- أشعر أنك تكلمينني بكثير من الحذر كأني أي شخص آخر وليس خطيبك.

- هذا شيء سيضيع مع الأيام وسنعتاد حتمًا على بعضنا.

- هل جعلت لنفسك ورد يومي كما قلت لك؟

- نعم، سأقرأ من القرآن أربع صفحات كل يوم، صفحتين صباحًا ومثلهما مساءً.

- فقط؟!

- لابد أن يكون التقرب إلى الله تدريجيًا.

- مع أني غير مقتنع ولكن سأظل خلفك أساندك حتى تتقربي إلى الله أكثر بالعبادات... والسنن؟

- نعم، اليوم صليت سُنّة الظهر والمغرب.

- والباقي؟! أنتِ بطيئة وكسولة.

وسمعت ضحكته الخافتة ثم قال: ألم تغيري رأيك بشأن النقاب؟

- لا..

- ولكنك سترتدينه حتمًا.

ردت بحدة: كيف؟! هل ستجبرني عليه؟!

- ليس إجبارًا، أنت الآن لا ترتدينه، ولكن بعد الزواج سيكون من حقي أن تطيعي أوامري.

انطلقت كلمة (أوامري) في أذنيها لتشعلها غضبًا، ردت والحدة تزايدت في صوتها:

ولكني سوف لا أؤجر على فعل لا أقتنع به.

- ستؤجرين لأنك تطيعين زوجك..

وبعد انتهاء المحادثة شعرت بضيق واختناق في صدرها، إنها غير حرة.. تمشي في طريق يقيدها أكثر فأكثر، بل يجعلها تضع قيدها في يديها بنفسها، ولم تستطع هذه المرة إقناع نفسها بأنها ستعتاد ذلك.

*****

هالها فيما بعد كم المحرمات التي يلقيها عليها، وظلت تتحمل وتشعر بالذنب لفترة طويلة، حتى انفجر كبتها وصاحت فيه:

كل شيء تحرّمه عليّ.. كل شيء، هل الله حرّم علينا كل ذلك؟!

- أنا أكثر منك سنًا وعلمًا، وإذا قلت لك شيئًا فلتثقي به.

- هل من يفعل خطأ بجهل أو دون قصد يكون جزاؤه جهنم؟!

- الجهل ليس رخصة لك لتفعلي ما تشاءين، لابد أن تتحري الحلال وتتعلمي أمور دينك.

- إذن.. فلماذا خلق الله الجنة؟!

- للأطهار الصادقين.

- ومن منا بريء؟ ومن منا طاهر صادق لم تلوثه الدنيا؟!

- فلتبكِ على خطيئتك..

ردت بانهيار: سأظل أبكي وأنتحب، سأبكي على حياتي كلها.. على كل شيء، كنت أتصور من قبل أن الكافرين هم من سيذوق العذاب الأليم، ولكن تبين لي أننا كلنا في ذلك سواء.. فجميعنا سقط في الهاوية، كلنا نعيش في أصل الجحيم، لم يعد يهمني شيء.. فلتسعنا جهنم.

- يبدو أنكِ جننتِ!

- كلمتني عن عقاب الله ولم تكلمني عن رحمته، كلمتني عن النار ولم تكلمني عن الجنة.

- لا.. بل قلت إن ندمك وتوبتك ستُدخلك الجنة.

- وهل بين يديك موازين عدالة السماء لتعرف هل سأدخل الجنة أم النار؟!

- وهل تعلمين أن الجدال سيؤدي بك إلى العصيان؟ والعصيان سيؤدي بك إلى العذاب الأليم؟

صاحت: ألم.. ألم.. ألم، إنني أكره الألم.. أبغضه بشدة، فحياتنا كلها تتلخص في تلك الأحرف الثلاثة، محاطة دنيانا من كل اتجاه بالألم.. لا يترك لنا متنفسًا لنرى ما وراءه من نعيم الحياة.

- يا حبيبتي.. خُلق الإنسان في كبد، ولم تُخلق الدنيا للنعيم.

ارتجف جسدها بعد سماعها كلمة (حبيبتي) أثناء حديثهما عن الالم، فتمالكت نفسها في لحظة وقالت: أنت إنسان سادي لا ترى غير العذاب.

- وأنتِ إنسانة متمردة ترفضين أي نصح، ولا تقدرين أهمية طاعة شريك حياتك.

اختنق صوتها بدمع لم يره: كم نحن مختلفان!

- لا تقلقي، سيوفق الله بيننا عما قريب..

ثم زفر نفسًا عميقًا: لقد أعياني حديثي معك، أنت عنيدة حقًا.. تصبحين على خير.

*****

وفي اليوم التالي اتصل بها وقال:

أرى أنك تغيرتِ البارحة منذ أن قلت إنه يجب عليك طاعة زوجك.

- لم أتغير..

- بل تغيرتِ، هل تضايقك طاعتي؟!

- لا.. ولكن يضايقني أن تجبرني على شيء لا أريده أو غير مقتنعة به لمجرد أنك تريده.

- بل يجب على المرأة طاعة زوجها حتى فيما لا تقتنع به، أليس الرجال قوامين على النساء؟

لم ترد وسرحت بذهنها بعيدًا فيما ستكون حياتهما عليه فيما بعد.

- تعارضينني في لبس النقاب، فما بالك إذا طلبت منك شيئًا آخر؟

- مثل؟

قال بخبث: حقوقي الشرعية.

ابتعلت ريقها بصعوبة وأجفلت من الجملة الأخيرة وقالت: كنت أتمنى ألا تتكلم عنه كحق وفرض واجب لابد أن أقدمه لك.

- لا أفهم.. ماذا تريدين أن تقولي؟

- لا تهتم..

- أتعرفين إذا تصورنا أن الزمن مرّ بنا وأصبحنا زوجين الآن في ليلة عرسنا ماذا سأفعل؟

توقعت أنه سيقول أنه سيُقبل رأسها ويديها بحنان، أو أنه سيشعر بسعادة لا مثيل لها لاقترابه منها وسيحتضنها بشدة، أو على الأقل توقعت أنه سيتحدث ساخرًا عن ذبح القطة، ولكنه قال كلامًا آخر.. كلامًا خدش حياءها وجرح شيئًا في أنوثتها.. شعرت أنها جاريته التي يستمتع بها، لم تتأثر بكلامه إلا بالنفور ودخل في قلبها وخز خفي بالإهانة.

وتساءلت بحسرة.. لماذا لا يقول لها كلامًا رقيقًا كالذي يقال بين المحبين؟، فهذه فترة الخطوبة.. فترة الأحلام والمقابلات والآمال قبل المسئولية والقيود.

ومع مرور الأيام واستمرار ذلك الوضع احتقرت نفسها لأنها لم تردعه من البداية وأنها تكتفي بالخجل والسكوت، فصاحت فيه هذه المرة:

كفى.. كفى هذا الكلام.

- لقد اعتقدت بسكوتك أنك سعيدة به.

- سعيدة؟! يا أيها الشاب المتدين المحترم أي فتاة يقال لها هذا الكلام ستصمت خجلاً أو تصرخ فيك كما أفعل الآن.

- وماذا في ذلك؟ سنصبح زوجين وكل ذلك حلال!

- من فضلك لا تُحرّم حلالاً ولا تُحلل حرامًا على هواك، بل لا تُفتي مطلقًا، لقد تجاوزت حدودك بكلامك هذا قبل عقد القران، فهل بعد حديثك عن السنن والقرآن يتحول كل الكلام بيننا إلى جنس؟! هذا شيء أرفضه تمامًا.

- وطريقة حديثك معي أيضًا أرفضها، ولا يصح أن تكلمي خطيبك الذي سيصبح زوجك بهذا الأسلوب.

- وأنت أيضًا لا يصح أن يكون كل تفكيرك وكلامك فيه مثل هذه الإيحاءات، هل أنا بالنسبة إليك متعة فقط؟ أين كتاب الله الذي تحفظه؟ ألا تخجل؟!

- يبدو أنك معقدة نفسيًا، هذه هي الطبيعة وهذا ما يحدث بين أي رجل وزوجته.

صرخت: نحن لسنا زوجين حتى الآن..

انتبهت لصوتها العالي وقلقت من أن يكون سمعها أحد خارج غرفتها، ورجع تركيزها لهاتفها ثانية فوجدته أغلق المكالمة..

*****

مر أسبوع منذ ما حدث ولم تكلمه مطلقًا.. وكذلك هو، وفكرت.. هل كانت حادة معه أكثر من اللازم أم أنها فعلت الصواب؟ وثارت تساؤلات في نفسها، تذهب وتجيء بها إلى أفكار مختلفة، لماذا تخطى المرحلة الهادئة للمعرفة والتقارب بينهما إلى مرحلة ليس وقتها الآن رغم أنها آتية لا محالة؟! ولماذا لا تشعر بالأمان والاحتواء معه كما شعرت مع عمر؟ ولماذا لا يحاول أن يعطيها هذا الاحتواء؟

كلمت نفسها في جزع: عمر.. هل ذهب بي عقلي إليه؟ كيف أفكر في رجل آخر وأنا مخطوبة؟ لا.. التفكير سيذهب بي إلى مناطق خاطئة يجب أن أغلقها، سأكلمه اليوم بصورة طبيعية عندما يأتي عندنا هو وأهله.

*****

وضعت الفتاة والأم الطعام على المنضدة وأخبروا الضيوف أن العشاء جاهز، واتجهت أميرة إلى المائدة لتجلس بصورة عشوائية، فقالت أم معاذ بابتسامة:

لا.. اجلسي بجانب خطيبك.

جلست بجانبه وقلبها مازال فيه شائبة تجاهه، وأثناء تناولها الطعام لم تلتفت إليه في البداية، ولكن صدمتها قشعريرة أحست بها في ركبتها.. نظرت إليه، هو ثابت جدًا لا يبدو عليه أي شيء، تغير وجهها وانعقد حاجباها وعاودت الرجوع إلى أكلها واعتبرت أنه لم يقصد، كان الأهل مشغولون في الطعام وكلام المجاملات الذي خنقها وجعلها تضيق بالمجلس ولا تشعر بطعم شيء في فمها، فلم تشاركهم الحديث، حتى فوجئت مرة أخرى بمعاذ والشوكة تسقط من يده بجانب قدمها، نظرت بسرعة إلى الأرض وهمت بمد يدها لتحضرها له، فقال بصوت خافت:

أشكرك.. سأحضرها أنا..

شعرت بيده عند قدمها فأبعدتها.. أحضر الشوكة، ثم أحست بالقشعريرة نفسها تهزها مرة أخرى، ورفع يده ببطء على ساقها فانتفضت وقامت.. واعتدل هو في مجلسه، نظر الجميع إليها فقالت:

سأحضر المزيد من الماء...

ذهبت بسرعة إلى المطبخ دون انتظار رد من أحد، ووقفت فيه مبهوتة تنظر إلى لا شيء، حاولت إقناع نفسها للمرة الثانية بأنه لم يقصد، ولكنها لم تستطع إبعاد الفكرة عن رأسها.. كلمت نفسها بإصرار:

لا.. لا.. بل هو يقصد.

وأخذت تفسر ما حدث بصوت هامس، ففوجئت بصوت أمها: أتتحدثين مع نفسك؟!

استدارت إليها بسرعة ولم ترد.

- ما بك؟ لماذا قمت؟ الماء على المنضدة؟

نظرت إليها نظرة الملهوف وقالت: أمي.. حدث شيء يجب إخبارك به.

أشاحت لها بيدها بلهجة مستنكرة آمرة:

أي شيء هذا؟! ليس الآن.. ارجعي وأكملي طعامك وابتسمي في وجه خطيبك ولا تكرري تصرفاتك السخيفة هذه أمام الضيوف... تفضلي!

مشت أميرة أمامها، فقالت:

إلى أين؟ أحضري الماء حتى لا يرتابوا في حجتك.

ظلت أميرة ناكسة الرأس طيلة الجلسة مصدومة مما حدث، وفسروا ذلك بخجلها وبابتسامات ساذجة كثيرًا ما تحدث في مثل هذه المواقف، حتى انتهت الزيارة فتنفست الصعداء، واتجهت إلى غرفتها بعد توديعهم، فنادت عليها أمها:

- أميرة.. ماذا حدث؟ ما الذي أردت إخباري به؟

تأملت وجهها بألم، وهي تتكلم بصوت عادي غير مهتم أمام أخيها وأبيها، فنكست رأسها مرة أخرى وقالت بخفوت: لا شيء..

بعد نصف ساعة كانت على وشك النوم، ولكن معاذ اتصل بها..

- كيف حالك؟

- حالي؟! كنت هنا منذ قليل وتسألني عن حالي؟

- أميرة.. لماذا كلامك حاد معي دائمًا؟

- راقب تصرفاتك وكلامك أولاً ثم اسألني هذا السؤال.

سمعت ضحكة مكتومة وقال: أتقصدين ما حدث أثناء تناولنا للعشاء؟

تيبس لسانها.. نعم.. لقد كان يقصد ما فعله.

ردت بعد لحظة: كيف تمد يدك على ركبتي وتتحسس ساقي؟

- أنا خطيبك.

- الخطوبة لا تعطيك مبرّرًا لما فعلت.

- أعتذر ولكني أردت أن أذيب الثلج الذي بيننا.

- ثلج؟! أي ثلج هذا؟ وإذا ذاب ماذا سيحدث؟! أتصالحنى بهذه الفعلة؟

- لا.. لم أقصد مصالحتك.. سأتركها لفهمك.

- من فضلك لا تهدم صورتك الجميلة بداخلي، صورة الإنسان المتدين الحافظ للقرآن.. أرجوك لا تهدمها..

- وهل ما حدث يهدم صورتي عندك؟

- لا تفاهم بيننا.. تصبح على خير.

سلم عليها وأنهى المكالمة وتركها للأرق لمدة، حتى سيطر عليها النوم من التعب.

*****

أحست بضيق شديد تجاه خطيبها في الأيام التالية، لا تريد محادثته.. تعتذر بأي عذر حتى تنهي مكالماته، وإذا بدأ أهلها بالكلام عنه أثناء

أحاديثهم تتركهم وتجلس وحدها، فأحسوا بشيء غير طبيعي يحدث.. وأنها ضائقة من ارتباطها به، ولكن أحدًا لم يجلس معها ولا سألها، بل اهتموا أكثر بالتخطيط لما سيتم شراؤه في الفترة القادمة للتجهيز لهذه الزيجة.

وأصبح معاذ على حذر منها ولا يدخل معها في نقاش، ولكن بعد مدة من التجاهل قرر أن يتصل ليُنهي الخلاف:

أميرة.. لابد أن ننهي حالة الخلاف بيننا، لماذا لا نتفق أبدًا؟

- معاذ.. أنت لا تفهمني، لا تقدر مشاعري في أي شيء، أي بنت تتمنى في فترة خطوبتها أن تصبح كأميرة تسمع كلامًا جميلاً.. تفهم شخصية خطيبها.. تتقرب من أهله، يتعرفان على المشترك والمختلف بينهما ولكنك فاجئتنى بحديثك الحسي الخالي من المشاعر.. لقد صُدمت فيك.. وأهنتني.

- كلامك غريب.. فأي امرأة تشعر بأنوثتها بهذا الكلام.

- إنك تُشعرني بالعبودية.. فذلك يثير نفوري واشمئزازي، لماذا لا تقدر كياني وطبيعتي كفتاة؟

- ما الذي يقلل من كرامتك في كلامي؟

استفزها عدم فهمه رغم كل هذا الشرح، فردت بحدة:

كلامك يخدش حيائي، هل هذا كل ما يربط الرجل بالمرأة في نظرك؟ أرجوك افهمني.. يومًا ما سأكون زوجتك وإذا استمر الحال على ما هو عليه فسأشعر بإفلاس عاطفي شديد.

- كلامي هذا يسعدني ولا يهينك في شيء، فلماذا لا نتشاركه ونسعد معًا؟

شعرت بباب من حديد يُغلق في وجهها وبحاجة ملحة إلى البكاء، لم ترد ولم تسمع بقية حديثه.. اختفت برأسها تحت خُدّديتها وأسلمت روحها للدموع تفضي إليها بكل ما في صدرها من غربة..

*****

استيقظت حمراء العينين من أثر البكاء، أسندت ظهرها للحظة وحدثت نفسها:

لماذا ضيعت وقتي بعد التخرج وانشغلت بالخطبة دون بحث عن عمل يملأ حياتي؟ سأبحث عن عمل حتى ولو اعترض معاذ، فهو ليس حكمًا عليّ، فليحكم نفسه وشهواته أولاً.

وفوجئت في نفس اليوم بزيارة زينب لها، كانت تحمل لفة هدية لها ألوان زاهية، سلمت على أم أميرة وجلست معهما، وقالت موجهة كلامها لأميرة:

أخي أراد أن يثبت أنك غالية عنده وأنه يهتم بمشاعرك، فأرسل لك هذه الهدية.

اجتاحت الفرحة قلب أميرة وتنفست براحة.. أخيرًا سيتودد إليها برقة دون تصرفات جريئة وكلام خادش.. فشكرتها.

فسألت: ألن تفتحيها؟

فضت أميرة ورق الهدية ووضعته جانبًا ونظرت لدقيقة محملقة لا تعرف ماذا تقول، لقد باغتتها المفاجأة.. أخذتها منها أمها مبتسمة ابتسامة خبيثة، فقالت زينب:

ألم تعجبك الهدية؟

- أي هدية؟! إنه قميص نوم!

- نعم.. رآه معاذ وأعجبه، وتصوره عليك وكأنه صُمم لأجلك، فقرر شراءه لك.

قالتها وهي مبتسمة ابتسامة عادية، وشعرت أميرة بإحباط عظيم ونظرت إلى الأرض.

قالت أمها: أتخجلين؟ أي خطيب يمكن أن يُهدي خطيبته شيئًا كهذا.

تحول إحباطها في لحظة إلى غضب حينما رأتهما تتحادثان وكأن شيئًا لم يحدث.

فصاحت في زينب: هل أخوكِ لا يتصور إلا جسدي؟ ألم يجد هدية أرق من هذه ليهديها لخطيبته؟

ردت عليها أمها بنظرة حادة: ولم لا؟ هل سترتدينه لرجل آخر؟

قامت أميرة في فوران: لا أريد هذه الخطبة. إنه إنسان لا يتكلم إلا عن الجنس والجسد.. رجل مريض.. لا يشعر.. لا يفهم.. لا يحب.

صاحت زينب: ما هذا الكلام؟!

- قولي له أميرة لا تريدك. أنا لست متعة لأحد.

- لا أسمح لك!

فرمت أميرة الهدية على الأرض وردت بغيظ: أنا أيضًا لا أسمح باستمرار هذه المهزلة.

شدتها أمها من ذراعها وهزت جسدها في عنف صائحة: كفى.. كفى صراخًا. أليس لديك أدنى احترام لي؟ هل اتفاق أبيك مع أهله كان مجرد لعب في رأيك؟ كفاك تدللاً. هل تظنين نفسك أميرة فعلاً؟

نظرت إليها زينب نظرة تحفز وقالت بنبرة ذات معنى: هل تظنين أنك الفتاة الوحيدة في العالم؟ فتيات كثيرات يتمنين رجلاً محترمًا متدينًا مثل أخي.

- فليذهب لأي واحدة منهن.

أخذت زينب هذه الكلمة وتوجهت نحو الباب في غضب، حاولت الأم تهدئتها دون جدوى فرجعت لابنتها ولكنها كانت قد دخلت حجرتها وأغلقت الباب منهارة في البكاء، لا تسمع صراخ ولعنات أمها عليها من الخارج..

*****

احتاجت بعدها إلى صديق يفهم.. أذن تسمع.. عقل يفكر معها لا عليها، وتمنت في نفسها أمنية.. تمنت أن تراه.. تحادثه.. تتناقش وتختلف معه كما كان، وأدركت كم كانت في الماضي لحظات جميلة مرت دون أن تعيش جمالها وتقدر قيمتها، وعقدت الأمل على شيء واحد.. وبينما هي تفكر دخل عليها والدها..

جلس أمامها وقال بهدوء: لا تخافي.. لن أحدثك عن غضبي من فسخك للخطبة دون الرجوع إليّ، ولا سألومك على معاملتك لزينب في بيتنا.. ولا سأحكي عن الإحراج الذي تعرضت له بسببك أمام والد معاذ، كل

ما أريد معرفته سبب كل هذا الرفض بعد موافقتك عليه في البداية؟ ماذا فعل لك ليتحول انبهارك وارتياحك له إلى كل هذا النفور؟!

فحكت لأبيها عن كل ما حدث مع احتفاظها ببعض الأشياء التي تخجل من ذكرها صراحة، ومع استمرار حكيها انقلب وجهه إلى الصدمة والغضب.. لم يقاطعها ولم يعنفها، بل قال في نهاية حديثها:

سأصدقك فيما تقولين.. فأنتِ ابنتي وتهمني مصلحتك، ولكني أود أن أنصحك بشيء هام.. لا تجعلي هذه التجربة تؤثر على حياتك القادمة.. ستقابلين يومًا رجلاً محترمًا تتزوجينه، تصبحين على خير.

وقام من أمامها وسط اندهاشها لتفهمه وإنصاته إليها، نادته فنظر إليها ثانية، فقامت وارتمت في حضنه..

*****

في اليوم التالي دخلت أمها عليها وأيقظتها..

- ماذا قلتِ لأبيكِ أمس؟ اعتدلي واجلسي وردي عليّ.

صمتت لثوانٍ محاولة استيعاب كلامها، وفتحت عينيها الناعستين ثم قالت:

قلت له ما حدث بالضبط.

- أيعجبك ما يحدث بين العائلتين الآن؟ لقد أمسك والدك الهاتف ولم يبقِ شيئًا من كرامة معاذ، لقد جعلها خرقة بالية ومسح بها الأرض.

هزت أميرة رأسها مؤيدة: إنه يستحق ذلك.

- لماذا لم تحكِ لي أنا؟

- أردت أن أخبرك ولكنك تجاهلتيني.

- هذا ليس مبررًا، كنت سأوقفه عند حده.

- النهاية أنني انتهيت من هذا الكابوس.

- يا لجرأتك.. أتتخلصين نفسك وتورطيننا نحن؟!

- ماذا حدث؟

- قلت لك إن أبوك أهان معاذ، ووالده لم يسكت، وتحول الأمر إلى مشاجرة بسببك.

- بسببي أنا؟! هو المخطئ لا أنا.

- أي رجل في الدنيا تأتيه هذه الخيالات ويتمنى فعلها مع خطيبته ويقول لها كلامًا حلوًا تتمناه كل الفتيات، أنتِ حولت المسألة لمشكلة كبيرة، كنت أتمنى أن نخرج من هذه الخطبة دون مشاكل.. بهذه

الطريقة ستُحتسب عليك الخطبة ويتناقل الكلام بين الجميع أنك كنتِ السبب في فسخها.

ملأها كلام أمها ذهولاً.. لم تستطع الرد، وألقت أمها عليها نظرة نارية غاضبة وخرجت.

*****

وقفت أمام الباب منتظرة.. وفُتح الباب.. رأت في عينيه المفاجأة والفرحة ونهاية انتظار طويل وحزن يغشى كل وجهه، فقالت له بصوت خافت حزين:

كيف حالك يا عمر؟

- بخير.. الحمد لله.. تفضلي.

دخلت وجلست وبدأ هو بالحديث:

كان بداخلي شعور دائم أن هذه ليست النهاية وأنك ستعودين يومًا..

صمت لثانية ناظرًا إلى عينيها، وأكمل حديثه: أرى في عينيك مرارة وألمًا.

- لقد تم فسخ الخطبة..

اجتاحت عينيه سعادة غامرة وقال بحماس: لا تهتمي.. فالقادم أفضل بإذن الله.

- ألن تسألني عن السبب؟

- لا أريد أن أوجعك بالحديث عما يجرحك، فما يهمني الآن هو أنني رأيتك بخير فقط.

تكلمت بعد صمت وجيز: كيف يمكن لإنسان أن يُخفي حقيقته بكل هذا الإتقان؟

- الكثيرون لديهم ألف وجه، يستحضر الإنسان الوجه المناسب لأي موقف في حياته ويتقن ذلك ببراعة، وما يجعل الحياة أكثر صعوبة.. هو أنك لا تستطيعين التحقق أيًا منهم الوجه الحقيقي وأيًا منهم الزائف.

زفرت كل ما في قلبها من همّ وقالت: إننى متعبة جدًا.

- أنا في منتهى السعادة أنك أتيتِ لي في هذا الوقت بالذات.

ثم قال ببطء: هذا دليل على أن قلبك مازال يحمل معزة لي.

ابتسمت، فقام بسرعة وقال: أنا أعرف جيدًا كيف أخرجك من هذه الحالة، سأصنع لك شيئًا تشربينه ثم نقرر ماذا سنفعل.

قامت ودارت بعينها في اللوحات، ووقفت أمام لوحة جديدة لم ترها من قبل، ورجع هو بعد دقيقة وفاجأها من ورائها حاملا للشاى بقوله:

مازلتِ لا تحبين الفن العاري؟

- بل لا أعتبره فنًا من الأساس.

- بل هو فن لا تفهمينه، فمثلاً حين يرسم الفنان ثدي امرأة تُرضع طفلها فذلك لا يُجسد إثارة، بل هو تعبير عن حنان الأم واحتياج ابنها لها، يُعبر عن الحياة التي تنبثق من المرأة وقلبها وروحها أثناء الرضاعة، تعبير عن احتياجنا كلنا لهذا الحضن.. وإليها، ومثل آخر...

قاطعته بابتسامة هادئة: مازلت أحبك..

وضع الكوبين على المنضدة بسرعة وأمسك يديها الاثنتين وقبلهما بشوق، وهمس:

وأنا أيضًا.. لم تغيبي عن عيني لحظة واحدة..

أزاح المنضدة بعيدًا ثم ضغط على الزر ليغطي صوت الموسيقى على كل شيء.. إلا حنينهما، ومد يده نحوها، فقالت ضاحكة: لا أعرف كيف أرقص.

- لا يهم.. اتركي مشاعرك ونفسك لأنغام الموسيقى لتعبث بها.

فتراقصت معه ولفت ودارت تحت يديه بخفة، وجدت في نفسها نشوى وسعادة عميقة لم تشعر بها من قبل.. لحظة ارتدت فيها طفلة لا تهتم بشيء.. لحظة رفعتها لأعلى بخفة ولم تهوِ بها إلى أرض الواقع، بل أصبحت طيرًا حرًا لا يريد الرجوع أبدًا إلى الأرض.

وارتمت على الأريكة في فرح غامر وجلس بجانبها يضحك، وقال:

لم أكن أعلم أن الذي يترك نفسه للموسيقى يصبح ماهرًا إلى هذا الحد.

صاحت في انفعال وفرح: إنها أسعد لحظات حياتي.

مرت لحظات صمت أشعلت ما في صدرهما من شوق جارف، نظرت في عينيه وملامح وجهه وكأنها تراها لأول مرة، ثم عادت إلى عينيه فرأت فيهما حياة وخيالاً وبعدًا آخر لم تره في عالمها.. ذابت معهما بعيدًا.. لم تمنع نفسها من ذلك الذوبان الجميل، وزادت حرارة صدرها متأثرة بأنفاسه المقتربة منها بأحاسيس تذيب ما تبقى منها، وأغمضت عينيها تاركة روحها للسعادة والنشوى، وانصهر فيها هو الآخر وعض شفتها ببطء ونهم.

**

أفاقت من خيالاتها على عينيه التي مازالت تتأمل ملامح وجهها. همس بنعومة:

إلى أين ذهبتِ مني؟

- لا شيء..

اقترب منها أكثر فأحست بأنفاسه الساخنة تُلهب وجهها، فأبعدته بيديها وقالت:

ماذا؟ ماذا تريد أن تفعل؟!

- سأقبلك.

وحاول ضمها ولكنها أبعدته بعنف هذه المرة وقامت، فقال: ماذا دهاكِ؟

- تريد أن تقبلني؟ أتتخيل أن هذا هو سبب مجيئي إليك؟ أن أرتمي في حضنك؟

- لم أقصد... ولكن..

قاطعته بحزم: ولكن ماذا؟!

- ولكنك عندما أغمضت عينيك في هدوء تصورت أنك سعيدة باقترابي منك وتريدين أن أضمك إلى صدري وأقبلك.

وقام وأمسك ذراعها: ألا تحبينني؟

- طبعًا.

- من يحب يتمنى ألا يترك حضن من يحبه أبدًا ولو انتهى الكون بما فيه.

- أحبك.. ولكن..

أخذت حقيبتها وخرجت بسرعة ولم تترك له فرصة للرد..

*****

اتصل بها كثيرًا ولكنها لم ترد، حتى أرسل إليها رسالة:

" أرجوكِ.. أعطيني فرصة لأكلمك ".

ردت عليه بعدها، ولكنها ظلت صامتة:

- أميرة.. أرجوكِ.. أريد أن أسمع صوتك، لم كل هذا؟

- أنت تريد أن تأخذ مني شيئًا لا يجب أن أعطيك إياه.

- لا لا.. كان ذلك تلقائيًا، لم أستطع السيطرة على مشاعري، إنني أحبك.

ثم زفر زفرة طويلة وطلب مقابلتها.

- لن أذهب لشقة لوحاتك مرة أخرى.

- ألهذه الدرجة أصبحتِ لا تثقين بي؟! كما تحبين.. هل لنا أن نلتقي في مكان عام؟

*****

جلست أمامه تتأمل وجهه من جديد.. تحاول رسم ملامح جديدة لهذا الوجه الذي أحبته، تريد اكتشاف شيء في عينيه لم تره من قبل.

- هل ستظلين صامتة هكذا؟

- أتيت لأسمعك.

اقترب لامسًا يدها وقال بخفوت: أميرتي.. ما كان سيحدث كان مجرد استجابة للهفتي عليك، ولم أكن لأفعل شيئًا إلا بإرادتك.

أشاحت بوجهها بعيدًا..

- ما هو تصورك عن الحب؟ هل هو الحب الأفلاطوني الذي أحب فيه روحك وأسهر ليلاً ونهارًا في انتظار نظرة منك ولا آكل ولا أنام حتى تردين عليّ؟ لابد أن يكون اهتمامنا وحبنا شيئًا متبادل.

- إذن.. أنت لا تشعر بنقص في حياتك بدوني.

- الله وحده يعلم كم تألمت لفراقك وخطبتك، حبيبتي.. الحب روح وجسد لا روح فقط، ولا تعظمي الأمور، لقد كانت قبلة فقط.

- تصغيرك لها واعتبارك أنها شيء عادي يؤلمني أكثر.

- أقصد أنها فعلة بسيطة وليست عظيمة كما تتصورين، ولكنها طبعًا من فمك شيء رائع.

- أنت تريد مقابل حبي لك.

- هذا كلام جارح لي، إنها ليست صفقة إعطاء وأخذ ومقابل، إنه حب.. مشاعر، أحببتك فتلهفت لمقابلتك.. زاد شوقي فلمست يدك.. زاد أكثر فأردت تقبيلك دون وعي مني.

- وإذا زاد شوقك أكثر من ذلك؟ هل ستستطيع التحكم في مشاعرك التي كلما زادت حولتها لحركة جسدية؟

- لماذا تفصلين جسدك عن الواقع؟ أتنكرين أنك تمنيت أن ترتمي في حضني أول ما تلاقت عينانا بعد فسخ خطبتك؟

ارتبكت بشدة وردت بصوت مهزوز: لا أنكر ذلك..

- كل رجل يضع جسد المرأة في اعتباره..

ظهرت المفاجأة على وجهها..

- نعم.. هذه هي الحقيقة، حتى ولو لم يحبها، إذا حادثك شخص - أي شخص - هل تتصورين أنه يتغافل عن جسدك؟

- كفى.. كفى هذا الكلام.

- ولم الخجل من الاعتراف بذلك؟ إنها غريزة فينا، إنني فنان قبل أن أكون مهندسًا، وهذه التفاصيل والمشاعر أحسها بوضوح في البشر.

- إذا أحبها فعلاً سوف لا يلتفت لجسدها، سيحب روحها بغض النظر عن جسدها.

- واهمة، كما قلت لك نظرتك للحياة مازالت صغيرة.

- إنك بذلك تُحوّل المجتمع كله إلى جسد كبير ينظر بعضه إلى تفاصيل البعض الآخر، تُحوّل العلاقات الإنسانية إلى حيوانية بلا روح ومشاعر.

- عزيزتي.. علاقة الرجل بالمرأة لها جوانب كثيرة، فمثلاً بعض شباب الجامعات عندما يقعون في الحب يلجأون للزواج العرفي كتطور طبيعي للعلاقة، وبعض الشباب يلجأون لعلاقات غير شرعية، إنها احتياجات.. واحتياجي دائمًا لاحتضانك فيه الكثير من المشاعر التي لا تُوصف، والتي يذوب فيها الجسد وكل الأشياء التي تتصورينها خاطئة، وذلك مختلف عن أي تلامس آخر لا حب فيه.

هزت رأسها يمينًا ويسارًا غير مقتنعة، وقالت: فلسفة فارغة.

- بل فلسفتك في الحياة هي الفارغة، ولن تملأها سوى التجربة، فلتتأملي علاقات البشر وتفكري فيها جيدًا، وما يدريك أن خطيبك السابق كان لا يفكر في جسدك خاصة عند اقتراب موعد عقد القران؟

انتفضت وغضبت وصاحت: لا تتكلم عن هذا الإنسان أبدًا من فضلك.

تعجب من رد فعلها ورد: آسف.

ران الصمت عليهما للحظة، ثم أمسك بيدها برفق وقال: حبيبتي.. لماذا تُخفين مشاعرك؟ هل في اعتقادك وتربيتك أن الفتاة التي تفيض بحبها ما هي إلا سافرة جريئة؟ هل تتصورين أن كلام الحب صنعة خُلقت للرجال فقط؟! لم تبوحي لي يومًا بمشاعرك، بل رأيتها بالكاد في عينيك وكلمة حب باهتة لا تستطيعين نطقها براحة، لماذا تعامليني بتحفظ

شديد رغم ما بيننا؟ تتصورين دائمًا أن الحب وبال عليك تجاهدين في إخفائه، فجري عشقك وثوري.. بعثري الوجود من حولك، أحيي عالمك ليتوجك ملكة عليه، لماذا تتمسكين بالتمثال الذي تم وأدك داخله؟! اعترافك بالحب ومعايشتك كل ما فيه لا يقلل من كبريائك.. بل يزيدك بهاء وجمالاً، اجعلي الحب بدايتك الجريئة ونهايتك الخجلة التي تقلب الدنيا على ساكنيها.. لا تبكِ أنك ضعيفة متخاذلة فحسب، بل ابكِ أيضًا على لسان عاجز وروح واهنة لا تقوى على حمل مشاعر رائعة يمكن لأي إنسان طبيعي أن يشعر بها.

سكتت تفكر في كلامه.. ولكنها في النهاية هزت رأسها وقالت:

أتعلم؟ إنك مثله، الفرق أنه يضع على وجهه قناع الأخلاق والتدين ويفعل ما يريده في الخفاء، أما أنت فتقول بجرأة وبساطة ما تريد فعله.

- بل أنا أفضل منه.. إنني لا أنكر ما أفعله، سواء كان صائبًا أم خطأً.. فلدي شجاعة الاعتراف.

- بل أنتما وجهين لعملة واحدة، هو يخدع من حوله بفضيلة مزيفة وأنت تفعل أخطاءك وتبررها بفلسفة خاوية، أنتما الاثنان تريدان استغلالي بطريقة ما.. هو يريد مني الاستسهال معه لمجرد أنه سيعطيني

الشرف العظيم بأن أصبح زوجته، وأنت تريد الأخذ مقابل الحب، كلاكما تنظران لجسدي لا روحي..

- أميرة.. لا تقارنينني به.

- سمعتك من بداية الحديث لنهاية فلسفاتك هذه ولم أستفد بشيء، فلماذا لا نتزوج وتنتهي المشكلة؟

رد زافرًا: قلت لك من قبل إني أحتاج الاستعداد النفسي والاقتناع.

ظل وجهها جامدًا لا ترد..

- أنتِ تعرفين جيدًا موقفي من الزواج، إنه نهاية مشاعرنا المتوهجة، صدقيني سيضيع حبنا مع الأيام ولن يتبقى منه سوى المسئولية والاحتياجات العادية، والتي لن تروي ظمأنا ووجودنا في الحياة، سيدور كل ذلك حولنا وسيأخذنا معه في ساقية تلف بنا كل يوم، ستعتادين وجهي وأعتاد وجهك فلا تقوم لمشاعرنا قائمة أبدًا.. فالحب يزيده الشوق.

- الحب الحقيقي أن أظل أحبك رغم عيوبك ورغم اعتيادي عليك.

- سترين عيوبي كاملة وقد تكرهين الحياة معي..

- إنني أراها من الآن..

- كيف؟

- هذا مفترق طرق بيننا، أنا أريد الزواج بمن أحب، وهو يريد الحب بلا زواج، لذلك لن أستطيع أن أكمل معك ما بدأناه..

نظر إليها تختلط في عينيه مشاعر المفاجأة والخوف والضياع وهي تنهى المقابلة بقيامها..

قال باستجداء: إنني أحبك.

وتمسّك أكثر بيدها، فردت وهي تخلص يدها من يده:

وأنا أكثر..

ورحلت وهو مذهول.. ضائع، وبرزت دموع عينيه تجسد خطواتها المبتعدة عنه... لقد فقد حبها ثانيةً...

*****

ورجعت إلى صندوق خواطرها، أمسكت الورقة والقلم تلتجئ إليهما من عذابها:

" احترت في شعوري بك.. إحساس غريب لا يفارقه الدفء والبرودة، من أنت؟ الوهم أم الحقيقة؟ فإحساسي بك إحساس خاص لا تشوبه مرارة الواقع..

أشعر بك امتداد روحي، فحين التقيتك وجدت نفسي.. وحين أفكر في كل أمنياتي الجميلة.. أتذكرك..

ولا أريد قول ما في صدري، فالحب إذا حُمل على الحروف أكسبها سخافة وصغرًا. بل إني أكاد أقول إن كل من كتب عن الحب كاذب.. فكيف لفيضان المشاعر أن تحده كلمات؟! وثمة مشاعر إذا قيلت خبا بريقها.

أحبك حبًا يواري خلفه عجزًا عن البوح، أحبك.. أكررها أبدًا وصداها لا يتعدى نفسي المكتوم الذي لا أسمعه.. ورسائلي التي لا تصل أبدًا.

أحبك حب الظمآن للماء.. حب الأرض للارتواء.. حب السجين للحرية.. حب الكبرياء لمعانقة السماء..

أحبك رغم اختلاف مقاييسنا، رغم ضياع عالمي عن عالمك، رغم موات حديثنا.. رغم زيف حياتنا. أحبك رغم مستقبل جريح وأمل مذبوح وكلمة حب مبتورة.. رغم أني أعلم جيدًا أنك حلم لن يتحقق.. رغم كل شيء... أحبك..

أحبك حتى يسكن الكلام ويحل الصمت.. أحبك حتى يجف ريقي من ترديدها..

أحببت عيني لأنها رأتك.. وأحببت صدري لأنه تنفس رائحتك، وأحب رائحتك لأنها تعدني بعبير الجنة، وأحب الجنة لأنها أنت..

وأحببت قلبي لأنه هام بك، وأحببت حبك لأنه أثبت لي أني مازلت قادرة على التنفس رغم تلوث دنيانا، ورأيت دنياي رائعة.. فقط لأنك فيها..

في عينيك كل جميل وأمام بريقها يتضاءل كل شيء وتُعزف أعذب الألحان، وكل بريق في العين موجع.. إلا بريق عينيك، فهي صفحتي البيضاء ومرآتي.

تمنيت أن تكون معي في هذه اللحظة.. فصاحبني صوتك في طريق خلا من كل شيء إلا منك، فصوتك لحن عذب يبعث في جسدي نبض الحياة، لحن فريد يسرقني ويدخلني عالم الأحلام.. ينتشلني من اليابسة ويغرقني في نشوته وجماله.

وكلما زاد اشتياقي إليك وغربتي.. أنظر إلى السماء فأرى وجهك بين نور نجومها ليلاً وفي بهاء شمسها نهارًا وفي صفاء سمائها دومًا.

فما أروع الأفكار حين تكون ملأى بك.. يا من ما بين حروف اسمك يُسطر عمري.

اعزف داخلي لحنك.. واجعلني أتراقص بخفة عليه كي تُزهر دنياك من حولي وأتناسى أي ألم..

ابنِ وطني بين ذراعيك..

فرفقًا بغربتي..

لا تغادر"..

وضعت القلم.. واحتقرت نفسها لضعفها وهوانها، وما رافق كلماتها إلا الدمع..

*****

الفراق مُهلك.. هذا ما أدركته بعدما تركته ورحلت، تغيرت الحياة كثيرًا.. اسود لونها.. واللحظات التي كانت تهدهدها في ذكراه أظهرت لها أنيابًا لم تكن تراها من قبل، فلا رائحة لشيء غير رائحة الزهور التي كانت بالقرب من جلستهما آخر مرة، فيتفجر في قلبها حزن عميق ما له من قرار، ولا طعم في فمها غير المرارة، وكل أيام الحياة توقفت عند اليوم الذي تركت يده فيه وفارقت، ومرت بها ظلمات شديدة أنّبت فيها نفسها على إنهاء حبها وقتله بيدها، وتمنت لو توقف الزمن عند اللحظة التي كانت فيها تتراقص بخفة بين ذراعيه والسعادة تضمهما معًا، ولكن الأمر أصبح واقعًا، فلا مفر ولا مجال للعودة.

** تجبرنا الحياة على السير بأقدامنا على جروحنا كي نستطيع العيش ولنعبر إلى أيام أخرى تصيبنا فيها جروح جديدة..

فكل الرفقاء يتفارقون.. إلا رفيقين هما الأخلص دائمًا.. الوجع والحب..**

**

" الفراق ذابح القلوب.. قاتل الفرح.. سارق النور من حياتنا، فلا يتبقى إلا الظلام، وما أسوأ تلك الظلمات في القلوب وما أقساها.. حينما يخفت النور بداخلك وتسعى للحاق به فلا تستطيع.. طيف أصبح ضعيفًا بمرور الأيام، تصل إلى ذروة قسوتها عندما تسأل نفسك: كيف سأعيش بعد الآن؟ عندما لا تجد طعمًا لأي شيء، ويملأ قلبك الوهن والخوف، ويتساقط معنى الحب بداخلك تاركًا بدلاً منه اشتياقًا يُلهب صدرك بنار سوداء تزيد قلبك ظلامًا.

تحاول التنفس فلا تستطيع.. عيناك دامعة طوال الوقت، تتحسس قلبك فلا تشعر بنبض وتجد مكانه فارغًا، فكيف يحيا قلبك بعد أن قطعت عنه الشرايين التي تُغذيه بالحياة؟ فالحب منح لقلوبنا الدفء ولعقولنا العذاب، ولحظاته الجميلة تُومض كالبرق، تنير حياتنا لثانية في عمر الزمن ثم تذهب مخلفة وراءها أوجاعنا، ويزيد عذابك حينما تتيقن من أنه أصبح مستحيلاً أن تتصل بحبيبك، أصبح ممنوعًا أن تكلمه أو تراه أو تتنفس الهواء الذي يستنشقه، ولم يعد من حقك أن تحلم به إلا على حين غفلة من الدنيا.. وتصحو من أحلامك على حقيقة أنك أصبحت ناضجًا، تُنضج قلبك الهموم بسعيرها، انتهت فترة الأحلام وبدأ الواقع بقسوته.. فمن الآن ستتخلى عن أحلامك وحبك إلى الأبد.."

وضعت القلم عند هذه الكلمة، وأخذت نفسًا عميقًا وهي تُفكر..

ثم نحت الأوراق عن ناظريها وقامت ونزلت من حجرة مكتبها في الجريدة، نظرت إلى سيارتها بملل.. تركتها وتمشت قليلاً حتى وصلت إلى النيل، وقفت تنظر إلى مياهه وكأن كل شيء فيها تجمد ولكن ذكرياتها استمرت في الحركة أمام بصرها، استدارت حولها فوجدت شابًا وفتاة يمران بجانبها.. يداهما متشابكتان.. عيناهما تنطقان بالعشق والفرحة، شاهدت اختلاجة وجهه.. همس همسة رقيقة في أذنها فاحمر وجهها، فاقترب منها أكثر فأبعدت ذقنه بحركة سريعة، فضحك..

تعلقت عيناها بهما بلهفة فتاة صغيرة في العشرين من عمرها، رأت في عينيهما كم ضاع من عمرها الفائت وكم خسرت.. وكم تهدم وسط الطريق، وتمنت لو أن حبهما يبقى على حاله.. بكر.. لا تلطخه دناسة الواقع وثقله.

وتذكرت كلمات الإعجاب التي كانت تُقال لها من الشباب من حولها.. فوجهت وجهها إلى النيل مرة أخرى مبتسمة.. لا تعرف هل هي ابتسامة حسرة أم ابتسامة صمود أمام سخرية الحياة من مشاعرها..

وتذكرت وفاة والديها، وزواجها، وزواج أخيها طاهر وسفره إلى الخارج، وأحلامها التي تهدمت بعد الزواج، وطلاقها في النهاية.. وأبصرت نفسها

وإلى مكانتها المرموقة اليوم، وتعجبت من بخل الدنيا التي تعصف بكل شيء وتُعطي القليل في المقابل.

ثم مرت امرأة تسير بثقة واتزان، يسير معها طفل جميل يمسك يدها وفى يده الأخرى قطعة من الحلوى يلعقها كل ثوانٍ وينظر حوله يستكشف الحياة والناس، ثم وقعت عيناه عليها.. تلاقت العيون فذابت في عينيه الصغيرتين، ومال نحو أمه وهو يفرك عينه، فمالت عليه في حنو وحملته، فتوسد كتفها وغاب عن الدنيا في سلام.. فهبطت الدموع حارة من عينيها حتى بعدما اختفى الطفل وأمه عن ناظريها.

ثم فاجأها اتصال من سيد الجمّال.. والد طليقها، ذلك الاتصال الذي لا يكل أبدًا من ملاحقتها، فزفرت زفرة مختنقة وردت.

- أميرة.. لابد أن نتكلم.

- هل هو نفس الموضوع الذي نتحدث فيه كل مرة؟

- يا ابنتي استعيذي بالله من الشيطان وتعالي.

*****

وعنده وقفت للحظة ناظرة إليه، فقال: اجلسي.. لماذا تقفين هكذا؟

فجلست وهي تتمنى أن تنتهي المقابلة بسرعة، خاصة أنها سمعتها ألف مرة قبل الآن.

- أنتِ تعلمين جيدًا أنني لم أُرزق ببنت، فأحببتك واعتبرتك ابنتي وشجعتك في العمل، وزوجتك ابني أغلى إنسان على قلبي، وكل ذلك دليل على قدر محبتي لك، لذلك لا أستطيع أن أرى ما بينكما يتهدم وأقف هكذا دون أن أفعل شيئًا.

- وضعنا هو الذي كان غير طبيعي، وحياتي معه كانت أكثر غرابة.

- وما الذي يمنع رجوعكما مرة أخرى؟

- تكلمنا في الأسباب كثيرًا حتى إنني تعبت جدًا من هذا الحديث.

- لا أقتنع.. مؤكد أنك تُخفين عني السبب الحقيقي.

- أي رجل وزوجته لابد أن تكون بينهما أسرار، لا يجب أن أحكي كل شيء.

سكت مفكرًا ثم قال بعد دقائق طويلة:

إذا كان بسبب علاقاته قبل الزواج...

قاطعت بانفعال: لم أتكلم عما فات، ولكن ليس له الحق إذا حدث ذلك بعد الزواج!

رد باستدراج: ولكنه لم يفعل شيئًا منذ زواجكما.

- وما أدرانا؟ إنني أعرف شخصية كامل جيدًا.

- لا تظلميه ما دمتِ لم تشاهديه أو تتأكدي بدليل قاطع على هذه الفعلة.

ترددت وهي تقول: إنه مدمن مشاهدة أفلام قذرة.

رد ببساطة: عادي.. اعثري لي على رجل لا يشاهدها.

- هذا غير طبيعي بالمرة، هل لأننا معيبون بشيء يصح أن نلطخ به باقي البشر؟ هل كل الرجال مثله؟!

- لا تقنعيني أن هذا هو السبب الرئيسي للطلاق.

ضيقت عينيها ونظرت إلى الأرض وقالت ببطء: إنه يطالبني بكل ما يراه في هذه الأفلام.

- هذا حقه.

اختنق صوتها وهي تقول: وأين حقي أنا؟ لماذا لا يراعي مشاعري؟ لقد استطاع كامل بكل جدارة أن يُشبعني قرفًا واشمئزازًا، أن يجعلني أكره محبتي له.. تصرفاته وطريقة تفكيره صدمتني وجعلتني أتحسر على ما حلمت به وتمنيته في الزواج.

- مشكلتك أنك ككثير من البنات، قبل الزواج يضعن نظرة رومانسية تتساقط تدريجيًا مع الواقع الفعلي بعد الزواج والتجربة الحقيقية.

- عمي.. أنا إنسانة لها كرامة، ويجرحني أكثر أنه لا يفهمني أحد.

- أتعرفين يا ابنتي؟ الرجل منا إذا وجد راحته وما يحتاجه في بيته فإنه لا ينظر أبدًا خارجه.

- ليس الخطأ مني، إنني أحاول إرضاءه قدر استطاعتي، وعلى الرغم من ذلك تهدم ما بيننا. بعض الرجال إذا وجد كل شيء في بيته شعر بالملل، فلا يسعى إلا إلى المرأة التي تُذيبه شوقًا ولا تعطيه شيئًا مما يريد ولا تريحه.. وكامل منهم، بحث كثيرًا عن فتاة خجول لا تعرف شيئًا، وفعل هو كل ما يحلو له تحت ادعاء أنه رجل لا يعيبه شيء وأنه حر لا حدود له. وبعد زواجنا طالبني بكل ما فعله ورآه في علاقاته الخاطئة، ويتخيل أن هذا حقه وأنني المقصرة! وأنا؟ أين إحساسي وتقديره لنفسي قبل جسدي؟ هل أنا مجرد دمية يتمتع بها؟

- إذا كان أخذ كفايته في بيته لما نظر خارجه.

صاحت وقد فاض الكيل: إلى متى سيظل ينظر إلى جسدي ويُهمل روحي؟ إلى متى يأخذ ويستمر في الأخذ ولا يشبع أبدًا دون عطاء؟

ثم سكتت للحظة وقالت بانكسار وقد طفرت الدموع رغمًا عنها: كامل بخيل.. بخيل جدًا في عواطفه يا عمي.

لم تنتبه للدهشة التي علت وجهه أثناء ثورتها، قال بهدوء: أول مرة يرتفع صوتك وأنتِ تحدثينني، لا تتخيلي أني سامحتكما على الطلاق دون الرجوع إليَّ.

شعرت بالحرج وردت بصوت هامس:

آسفة.. لم أقصد، إني بين فكي ضغط عنيف.. اعذرني.

هز رأسه متفهمًا وقال: الوقت تأخر.. ارجعي لبيتك، وأنا سأتحدث معه.

قبلت رأسه وخرجت من عنده وهي تلهث وتفكر:

لا أريد أن يكلمه في شيء، لقد انتهى ما بيلنا وكفى.

*****

وفي اليوم التالي اتصل بها:

- لابد أن نتحدث.

لم تعرف كيف ولماذا تأثرت لسماع صوته، أحست بالارتباك والحزن والحنين.

وفي الموعد المحدد.. رأته من بعيد، يبدو متوترًا ذاهلاً عما حوله.. اقتربت منه وهي تحاول الابتسام فلم تستطع، ولكن كانت ابتسامته واسعة عندما رآها.

جلست أمامه صامتة وتأملته، نظرت إلى عينيه.. هي نفس العينين الحانيتين التي ربطت قلبها ووعدتها بشيء خفى لم يفهمه إلا قلباهما، ونظرت إلى فمه.. ذلك الفم الذي فجر أنوثتها بين شفتيه لأول مرة في حياتها.. كم كانت رائعة تلك اللحظة.

وتأملت ذراعيه.. رأت بينهما ضحكها حينما كانت ترتمي فيهما وهو يضمها إلى صدره، قبل أن يتغير وتشوب حياتهما الألوان القاتمة التي أفسدت كل المشاعر الجميلة التى اقتسماها معا، فهمست لنفسها وقد تعلق نظرها بحضنه: كانت لي حياة هنا يومًا..

ولمحت يديه المعقودة تحت ذقنه وهو ينظر إليها حائرًا.. كم كانت تعشقهما وتذوب فيهما حبًا عندما كان يرفع يديها إلى فمه ليقبلهما في خشوع واستسلام للحب.

خيم الغروب بينهما شيئًا فشيئًا بغاشية قاصمة من الانكسار والحسرة.. أشاحت عنه بوجهها لتنظر إلى الشمس التي لم يتبقَ منها سوى الذكريات.

- أميرة.. هل ستظلين تنظرين لي هكذا دون كلمة؟

- وهل هناك ما يقال؟

وضع يده على يدها برقة وهمس: مازلت أحبك.

أبعدت يدها بسرعة وظلت صامتة، فقال:

لم أكن أعرف أن الحواجز بيننا غليظة إلى هذا الحد، لم كل هذا؟

نظرت إليه بغضب: أنت تعرف السبب جيدًا.

- من أخبركِ؟

- هل هذا كل ما يهمك؟! كل يوم يمر يكسر شيئًا قويًا كان بيننا.

هدأ صوته: أميرة.. أرجوك افهميني، هذه الفتاة كانت مجرد نزوة عابرة.. تسلية، تضييع وقت لا أكثر.

- أتتخيل أن هذا يبرر موقفك؟! بل يُضعفه أكثر، أنت رجل متزوج.. ولزوجتك كرامة.. كما أنك غير محروم.

- لا بل محروم.

- ماذا؟!

أشعل سيجارته ثم أرجع ظهره إلى الوراء وقال بهدوء وراحة: أتعرفين؟ قُبلتها مختلفة عن قُبلتك، لمستها لذيذة تعبث بي أو بالأدق بما تبقى مني!، أنثى حقيقية تتفجر رقة، ودلالها أكثر جنونًا ولهيبا.

كتمت غيظها وحاولت تمالك أعصابها حتى لا تبلغه مراده في إثارتها.

- أنت تُثير اشمئزازي.

- وأنتِ معقدة، كل شيء تحسبينه بالورقة والقلم حتى مشاعرك.

- أنت من تعودت على حياة القحاب.

- اخفضي صوتك قليلاً.

- ما عندي شيء أخجل منه.. بل أنت.

- كان يمكن أن تستمر الحياة بيننا لو أسعدتِ زوجك.

- لماذا تفكر دائمًا فيما يُسعدك وتتجاهل تمامًا ما يُسعدني؟

- قولي لي ما يُسعدك وسأنفذه في الحال.

- هذه أشياء تُحس ولا تُقال.

- أتعرفين أن الكثيرين نصحوني بالزواج عليك؟

- هم لا يعلمون أن العيب فيك أنت. لقد ألحقت بي نقيصتك وما كان عليّ إلا أن أسكت وأصبر كل هذا الوقت. والله يعلم أنك العاجز عن الإنجاب وليس أنا.

- ولكن هذا لم يكن ليمنع أن لدي الحق في الزواج من أخرى.

- افعلها وسأقول للفتاة المسكينة التي ستتزوجك، أتريد أن تُتعسها كما أتعستني؟

رد بحزن أدخل في قلبها الإشفاق: لماذا تصرين على ذكر ما يوجعني؟ أنا في أشد الاشتياق للأبوة، كان يمكننا إكمال حياتنا معًا وتصبرين حتى أتم علاجي.

- أتحمل وأصبر على كل شيء إلا الخيانة.

- أنتِ من تُعقدين الدنيا. زوجات أصدقائي يشاهدن معهم الأفلام التي تكرهينها وتخجلين منها، ويعلمن أيضًا بعلاقاتهم الخاطفة.

- أصدقاؤك مثلك.

أحنى ظهره إلى الأمام وقال بصفة الناصح:

يا طليقتي العزيزة، إذا ظللتِ تعقدين حياتك بهذا الشكل ستنفجرين يومًا ما.

أحست بوخز سخريته فتهيأت للقيام: دائمًا نقاشنا بلا فائدة ولا ينتهي بشيء.. عن إذنك.

وضع يده على يدها وقام معها: إلى أين؟ لم نكمل كلامنا.

أبعدت يده عنها بقوة وتحفز فقال: دعيني أوصلك.

نظرت إلى عينيه فرد بشوق واهتمام: أريد أن أطمئن عليك.. هل هذا ممكن؟

مشت معه بمشاعر متناقضة تتأرجح بين الحنين والرفض، جلست بجانبه في السيارة ولم تتكلم، وبعد دقائق قال:

ألا تتكلمين مع سائقك يا سيدتي؟

نظرت إليه بطرف عينها ثم أرجعت رأسها للجانب الآخر ولم ترد، فتوقف فجأة بالسيارة وقد حل سكون الليل، فقالت مندهشة:

لماذا توقفت؟!

وضع يده على ركبتها في لهفة واقترب منها، وهمس بصوت تعرفه جيدًا:

أشتاق إليك.. لا أحتمل.

أبعدته عنها وأرادت فتح الباب لتخرج، ولكنه أمسك ذراعها:

أيتها القاسية.. ارحميني.

صاحت: إذا لم تتركني سأصرخ.

- هل ستقولين: زوجي يعتدي عليّ؟!

- أنت طليقي ولست زوجي.. انتهى كل ما بيننا.

- ألم تشتاقي إليّ؟!

صرخت: اتركني!

وبعد محاولات نجحت أخيرًا في الإفلات منه وخرجت من السيارة، فصاح بغضب: مجنونة.. أنتِ مريضة.

وطار بالسيارة بسرعة جعلت الإطارات تصدر صريرًا على الطريق في جنون، وارتفعت إلى وجهها ذرات التراب.

*****

وعادت في الأيام التالية إلى الانغماس في عملها وتلقي مشكلات النساء لترد عليهن في باب صرخة امرأة، فتحت بريدها الإلكتروني لتقرأ رسائل

اليوم، ثم استوقفتها رسالة أثارت دهشتها، فأبعدت وجهها عن الشاشة وأرجعت رأسها إلى الوراء تفكر.. واختارتها لعدد الأسبوع، فصاغتها بأسلوبها:

" أعرف أن كلامي سيثير حنقك واحتقارك لي، ولكن لا أدري ماذا سيحدث لي إذا لم أتكلم، فمشكلتي تتلخص في أنني أحب أنوثتي بشدة أكثر من أي شيء آخر، أعشق شعري وهو يتمايل مع النسيم برقة، أعشق الدلال في الكلمات والتصرفات التي تصدر مني، لست مائعة ولكن لي أسلوب حياة أعطي به وأمنع كما أريد.. الكل معجبون بي وبأنوثتي وشخصيتي وجسدي، وكم أحببت أوقاتًا قضيتها في بيتي أنظر فيها إلى المرآة عارية لأرتدي ملابس تُبرز مفاتني أكثر، ثم أخلعها وألبس غيرها وأنا في بهجة كبيرة، ستتصورين أني غير متزوجة، وأنني فتاة جميلة تبحث عن زوج بهذه الطريقة الساذجة، وأن لدي تعطشًا لرجل يروي ظمأى بكلمة جميلة تُشعرني بوجودي، لا يا سيدتي.. إنني متزوجة وزوجي يحبني جدًا أكثر من أي شيء في حياته، وهذا ما يُعذبني، فضميري يؤلمني ويؤرقني كسوط من نار وحديد على ظهري، أكون في قمة سعادتي وأنا بين ذراعيه، ولكن.. ولكني لا أكتفي به.. نعم، هذه هي الحقيقة البشعة التي لا أستطيع استيعابها، لا تفهميني بصورة خاطئة، فأنا لست خائنة، ولكن كل ما في الأمر أنني أفرح بشدة بكلمات الإعجاب من هذا الرجل أو ذاك، بل أتفنن في إيقاع أي واحد منهم في غرامي ثم أتركه يلهث ورائي دون أن أريح قلبه بشيء، فأنتشي وأشعر

بقمة اللذة والسعادة عندما أرى نظرة اللوعة في عيون الرجال وهم لا يستطيعون الوصول إليّ. كل منهم يتمنى ويذوب من التمني ولا يجد ما يروي ظمأه.

قد يدفعك كلامي هذا - في أفضل الاحتمالات - إلى إهمال رسالتي تمامًا أو حذفها، ولكن ما يشفع لي أنني معذبة فعلاً، أتجرع المر ويصب فوق رأسي الجمر كل ثانية، خاصة عندما أرى ولاء زوجي لي، وكلما ازدادت نشوتي وفرحتي بإعجاب الرجال بي ازداد همًا وعذابًا عندما أجلس وحدي، وتمر أوقات الاكتئاب وتعذيب الضمير قاصمة، حتى أكسر حدتها بأن أتجرد من ملابسي مرة أخرى وأجرب أمام المرآة ملابس أخرى تُبرز أنوثتي وجمالي.

أخاف أن أكون مريضة نفسيًا، ولكن ما أمر به حتمًا سيدفعني إلى الجنون، أخاف أن أقع في بئر الخيانة وأتجرع قذارات قاعها المرير، أخاف ضياع حنان زوجي معي إذا فقدته بأفعالي هذه، أشعر أنني بصقة حقيرة لا أستحق رجلاً مثله، كيف أكتفي به وأنا لا أكتفي برجل واحد؟! هل أذهب إلى طبيب نفسي؟ هل أطلب الطلاق لأنه يستحق زوجة أفضل مني؟ أرجوك.. بالله عليك لا تُهملي رسالتي مهما بلغ غضبك.. ردي حتى لو أهنتيني.. والسلام عليكم".

غاب عقلها مجددًا في أفكاره لدقائق طويلة، حتى عادت وحفظت الرسالة لديها وكتبت الرد:

سيدتي.. لا تخجلي من رسالتك، فكلنا لدينا أخطاء نخجل منها ومشكلات يصعب على النفس تحملها، وكل مخلوق في الكون يعجب بطبيعته، فالأسد يقف بين الحيوانات يزأر معلنًا عن قوته، والعصفور يغرد منتشيًا بصوته الجميل، والطاووس يمشي مختالاً عارضًا جماله.. حتى الرجل يتباهى بفحولته، ولكن كل شيء له حدوده الطبيعية التي لا نقلق منها، ولكن حالتك زائدة عن الحد.

أعتقد أن هناك شيئًا ما ينقصك في داخلك وتحاولين تعويضه بهذه الأفعال، وما أراحني أنك تشعرين بسياط الضمير، فذلك دليل على كونك إنسانة سوية غير خائنة، تريدين حل المشكلة حتى لا تظلمي زوجك وتروضي نفسك.

من الطبيعي فعلاً أن تهتم المرأة بنفسها وتتباهى برشاقتها وخفة دمها وروحها، خاصة الفتيات اللاتي لم يتحملن المسئولية بعد، بل إنني أحيانا أقرأ بعض الرسائل التي تُعبر عن إهمال صاحبتها لهذه الأشياء، فلا يكون ردي عليها أكثر من: أحبي أنوثتك وعيشيها.

ولكن أنتِ أحببت طبيعتك حتى الثمالة، فذُهلت بجمالك عن أي جمال آخر في الحياة، ففي محبة زوجك لك جمال، ففي استقرارك معه جمال، ويوجد في الحياة الكثير من الأشياء الجميلة التي تستحق منك الالتفات إليها.. حاولي توزيع اهتماماتك فأنتِ الوحيدة التي تعرف

جيدًا مواطن الجمال في حياتك وتستطيعين إخراجها في أحلك وأشد الظروف.

ولا أعلم هل لديك أطفال أم لا، لم تحدثيني بشأنهم في رسالتك، قد تنقصك الأمومة ويوجد في أعماقك احتياج رهيب واشتياق جارف لتلك العاطفة الجميلة، نصيحتي لك أن تبحثي عن جماليات الحياة الأخرى وتواجهي نفسك بما ينقصك، وإذا استمر الوضع بشدته فلا عيب من اللجوء إلى الطبيب النفسي، فكلنا نحتاج إليه ولو لم نعترف بذلك، وقد نُهمل نفوسنا وتتعقد ونمشي في حياتنا بعقدنا ويثقل علينا مواجهتها خوفًا من صدمة المواجهة، أو لا نلتفت إليها من الأساس.

أرجو أن أكون قد أفدتك برأيي المتواضع، وأتمنى أن تفيديني برسالة لاحقة لتخبريني فيها بأن مشكلتك قد انتهت إلى غير رجعة.. والسلام.

*****

ثم قرأت رسائل أخرى كثيرة لمشكلات عادية تتكرر كل يوم، حتى توقفت عند هذه الرسالة، وقررت أيضًا صياغتها بأسلوبها:

" السلام عليكم..

أنا متابعة جيدة لمقالاتك وردودك على القارئات، كم تأثرت كثيرًا بكل حكاية تسردينها بقلمك عن مشكلات النساء، ولكني لا أعتقد أنه يوجد ما هو أبشع من قصتي.

أنا فتاة متعلمة ومثقفة، حظيت من التعليم والتربية بأجودهما، أحيا على قدر من التماسك والتحمل رغم فظاعة ما حدث لي، لا أنسى ذلك اليوم.. كان الوقت عصرًا وذلك الجزء من الطريق الدائري كان خاليًا حينها، وقفت أنتظر أي وسيلة مواصلات لأذهب لإحدى قريباتي، لا أعلم من أين ظهروا فجأة.. خمسة شباب خرجوا من سيارة في وقت واحد.. أحكموا قبضتهم عليّ.. لم أستطع الفكاك رغم صراخي العالي وعنادي ومحاولتي التخلص من أيديهم، كل شيء تم بسرعة.. وجدت نفسي معهم في السيارة معصوبة العينين مقيدة الحركة تمامًا.. أحاول التملص منهم بلا فائدة.

لك أن تتخيلي مدى ثقل استرجاع هذه الحادثة إلى ذهني، ولكني لا أسترجعها فقط.. فكل لحظة من حياتي تمر هي عبارة عن إعادة لكل ما حدث ببشاعته ووجعه وعذابه، فحياتي وآمالي ومستقبلي توقفوا جميعًا عند هذا اليوم.. وبقية الأيام مجرد بقايا..

لا يمكن وصف قسوة هذه اللحظات، أن يتم تكبيلك من خمسة أفراد.. ينتهكون إنسانيتك قبل جسدك، وتكونين حينها سجينة العينين والفم، تشعرين بالنهش القذر لجسدك ولا تستطيعين المقاومة، وينتهي كل ذلك بضربة شديدة على الرأس وتشويه للأعضاء، ثم تجدين نفسك ملقاة على جانب الطريق.. تفيقين لتجدي مجموعة من الناس حولك يحاولون نقلك إلى المستشفى.

تشخيص الحالة يا سيدتي.. اغتصاب، ويبدو أنهم ضربوها بغرض قتلها ولكنها للأسف أكملت هذا الجحيم، نعم.. للأسف، فياليتها كانت

النهاية حتى لا تواجه لهيب من حولها بعد انتهاء حياتها فعلاً.. أسنوا سكينهم عليّ واتهمونى بالدعارة وأصبحت ملوثة رغمًا عني، ودافعوا بكل سفالة عن المغتصبين، وتبرأوا كلهم من صرخات المجروح وتناسوا أنّاته مهما كانت فظيعة تُحيي الموتى من شدتها.

كل ما بداخلي يغلي بغيظ أكثر من فوران البراكين، كرهت كل الناس وكل من خذلني، أحتقر كل شيء ولم يعد للدنيا أي أهمية، لقد زادت قسوة كربي وشدتي أضعافًا، كنت أريد إبلاغ الشرطة عن الحادث ولكن أهلي منعوني.. بل هددوني بالقتل، وبعدها ظل حاجز الصمت بيني وبينهم وبين العالم كله تتخلله نظرات تزيد حياتي جحيمًا، الكل ينظر لي باشمئزاز ويتلذذون بعذابي، ولا أحد يشفق عليّ ولو لمرة واحدة.

فكل من حولي أحاطوا الفعلة بشتى المبررات، شككوا في تصرفاتي وأخلاقي التي كانوا يصفونها بكل ما هو رائع، بل قالوا عاهرة..

بالله عليك أخبريني كيف لفتاة واحدة أن تُحارب خمسة شباب؟! كنت أتمنى أن أقتل نفسي قبل أن يحدث هذا، ولكني لم أتحصل على يديّ أو ساقيّ لأضمهما نحوي، ولو كنت استطعت لحاولت باستماتة أخذ المطواة التي شرحوني بها لأقتل نفسي لأنني أعلم أنها النهاية.. نهاية كل جميل في حياتي، ولكن - كما تعلمين - كلام الناس مثل الساعة المعطلة.. ليس لها فائدة ولكن بها عقارب.

فهذا هو مشهد المسلوخ حيًا، ثم إذا نجا من الموت وفرّ من السالخين أتى عليه أهله بما يكوي بقية لحمه، فليس ما حدث هو الجريمة

الكاملة.. بل وجودي في هذا المجتمع، والعجيب أن الشمس تظهر كل يوم والفصول تتعاقب والكلاب تنبح في كل مكان وكأن شيئًا لم يحدث، ولم يهتز الكون ولا تأثر.. ولا أحد يصدق ويفهم، فهؤلاء البشر هم حقًا من كبلوني وأعدوا للاغتصاب بحرفية تامة بعهرهم.

لا أطمع في أن تُفيق رسالتي الناس إذا نشرتها، فمهما حدث من شدائد ومهما كان أنين المعذبين حتى لو تهدمت بهم الجبال فلن يتأثروا ولن يتزعزع فيهم شيء، يكفي فقط أن يعرفوا أن أي واحدة من أهلهم معرضة لهذا الخطر ماداموا يدافعون بكل جرأة وسفالة عن المعتدي والمجرم، وما يجعلهم يُحكّمون أنفسهم عليّ وعلى غيري هو أن نساءهم لم يحدث لهم ذلك بعد، وأن يعرفوا أيضًا أن بناتهم وأخواتهم وزوجاتهم مهددات بنفس المصيبة مادام المجرم طليق ينعم بمجتمع مثل مجتمعنا.

آسفة على الإطالة.. أرجوك.. فقط ادعوا لي بالموت فهو النجاة الوحيدة لعذابي، إنني أحاول إكمال بقية مدة سجني.. لا سجن المجرمين أقصد، بل سجن الحياة..

والسلام.."

تفجرت الدموع من عينيها وضاعت من رأسها الكلمات رغم أنها قرأت الرسالة أكثر من مرة وكتبتها بيدها، حاولت التفكير فلم تستطع وأيقنت أنه لا يوجد رد على مثل هذه الرسالة، فأي رثاء يمكن أن

يعطيها أملاً جديدًا؟ بدت الحروف في عقلها بصورة باهتة ساذجة، فقررت نشرها دون رد.

ثم قرأت العديد من الرسائل الأخرى حتى انتهى يومها مرهقًا من شدة التركيز والمشاكل، وقامت لترجع إلى المنزل.

خرجت من المصعد لتقف مبهوتة حين فوجئت بما يزيد ضربات قلبها ويذيب نفسها.. حين رأته، تجمدت لثوانٍ حتى تداركت نفسها وابتسمت ابتسامة بلهاء ردًا على ابتسامته الهادئة:

- كيف حالك يا أميرة؟

قالها وقد أشرق وجهه ببهجة لا تخفى عن عين، ردت ببطء وصوت خافت:

عمر؟! يالها من أعوام طويلة!

**

دخلت منزلها وأغلقت بابها ثم ارتمت على أقرب كرسي لقدمها، مازالت حتى الآن في حالة ذهول، كم مضت من أعوام على فراقهما.. تغير وجهه قليلاً.. أصبح أقل بشاشة. امتلأ جسده بعض الشيء.. عيناه غائمتان مثقلتان بوجع خفي، ولكنه مازال وسيمًا، وجمال ابتسامته وعينيه لم ينطفئ مع الأيام.

فتحت حقيبتها ونظرت إلى الكارت الذي أعطاه لها..: م/عمر حازم أبو النجا.

أصبح اسمه فيه شيء من الجدية والمكانة أيضًا.. حتى رقم هاتفه تغير.

وتساءلت: هل أعطاها الكارت مجاملة لها لأنها معرفة قديمة أم إنه ينتظر منها مكالمة بالفعل؟! ولماذا كان يهمّ بدخول المصعد؟ هل كان سيقابل أحدًا في الجريدة أم له أعزاء يزورهم في نفس المبنى؟

خمسة عشر عامًا أو أكثر قادرة على تغيير مسار حياة الإنسان إلى النقيض، بل ثانية تقدر، ولكن هل قدرت على تغيير مشاعره أيضًا؟

مشاعر؟! أي مشاعر؟

أحست أنها حمقاء، فلابد أنه تزوج أو سافر أو حتى قابل فتيات كثيرات ووقع في حب إحداهن، أخذت الأفكار تدور في رأسها كالدوامة

وتأخذها معها إلى القاع، نست نفسها وتعبت ونامت في مكانها حتى الصباح.. حتى العشاء لم تتناوله.

*****

حاولت في الأيام التالية ممارسة حياتها العادية بكل بساطة دون تفكير في هذه المفاجأة التي لا تستطيع وصفها.. أهي مربكة.. سارة.. حزينة؟ ولماذا؟ لماذا الآن بالذات بعد طلاقها وانكسار روحها من كل شيء؟ لماذا أتى الفرح بعد تحجر وجهها على ملامح الحزن؟ هل تعطينا الحياة طوق النجاة بعد انقطاع أذرعنا التي يمكننا التقاطه بها؟! فثمة إنقاذ يأتينا بعد غرق ما فينا.. ينتشل جثثنا من المياه المالحة التي أذابت قلوبنا ليقنعنا كذبًا أنه مازالت هناك حياة.. يفرغنا من مياه الدوامات التي أغرقتنا بعد أن أكلت وتغذت علينا، فنكتشف أنه لم يعد يتبقى داخلنا إلا خواء.

ورغم كذبها على نفسها إلا أنها لم تستطع الاستمرار في ذلك، فرؤياه أشعلت في قلبها أحداث الماضي بتفاصيله.. أحلام جميلة تكسرت على صفحة الواقع وطوتها الأيام بما فيها، لتلحق بها أحلام أخرى انكسرت أيضًا لتسخر منها دنياها بكل قسوة، فهل يمكن للقياه أن يمحو مرارة كل ما فات ويشفيها من وجع الأيام؟

ولماذا تتمنى الحب وقد حصلت عليه؟ كان كامل يحبها حبًا شديدًا وهي الآن ترفض بشدة الرجوع إليه، فعادت من رحلة حب وزواج بهزيمة لا تندمل مهما مرت عليها الأيام، فأصبح معنى الحب باهتًا يبعث أكثر على الخواء والحسرة.. لا أمان فيه ولا روح.

ولكن خيالاتها وأفكارها أبت إلا أن تفرض نفسها عليها..

فذات يوم دخل عليها ساعي المكتب وقال: هناك رجل يريد مقابلتك يا أستاذة.

- هل قال اسمه؟

- لا لم يقل.

- لا بأس.. دعه يدخل.

تسارعت ضربات قلبها.. هل يمكن أن يكون هو؟ هل أتى للقائها أم إنها كانت لحظة جادت بها الدنيا الشحيحة ولا يمكن أن تتكرر؟ وتأكدت مخاوفها للأسف حين رفعت رأسها لترى الداخل إليها..

ارتبكت للحظة وأحست كم هي مغفلة، ولكن تماسكت بسرعة ورحبت به وأجلسته، لتسمعه يقول:

عزيز سالم.. محاسب.. جئت لأقص عليك مشكلتي.

- ولكن يا سيدي الباب الذي أرد على مشاكله للنساء فقط.

- وهذا ما جئت لأتحدث فيه معك، إنك تعرضين كل أسبوع مشكلتين للنساء وتردين على رسائلهم، ومقالاتك فيها شيء من العداء للرجال، فقد تغيرين رأيك إذا سمعتِ مشكلتي.

- أنا لا أعادي أحدًا، إنني فقط أكتب عن سوء بعض الأفكار والمعتقدات السائدة في المجتمع وهذا دوري.. ما مشكلتك؟

تنهد ونظر أمامه وقال بحيرة:

لا أعلم من أين أبدأ.. أنا متزوج منذ عشر سنوات، تزوجنا عن حب كبير.. ولكن مع مرور الأيام ظهرت لي صفات لم أكن أتوقع أنها بداخل تلك المرأة التي كنت أراها كالزهرة الجميلة.

ابتسم ابتسامة حزينة وأكمل: لم أكن أعلم أن السنوات ستكشف لي الوجه الآخر من شخصيتها، ظهر لي الجانب القبيح من امرأة متسلطة تحب التملك، متمسكة برأيها لأقصى درجة.. لا تفهم.. لا تُقدّر.. لا تسمع غير صوتها فقط، لا يستطيع أحد محادثتها بهدوء مادامت تريد شيئًا، عندها قدرة على تحويل كل الأوقات الطيبة إلى جحيم، وطغى الطعم المر على فمي باستمرار العشرة معها، حتى إني نسيت الفرحة والراحة في حياتي.

أرخى جفنيه قليلاً وارتفع صوته بعض الشيء من الانفعال: يمكنها بكل براعة قلب الأمور ضدي، دائمًا ما أحاول التفاهم معها في أي شيء في حياتنا.. مصروف البيت.. مشاكل الأولاد.. أي مشكلة تصادفني أو أي شيء تريده، ولكني باستمرار يضيع مني الخيط بسرعة ويتحول الحديث إلى شكوى من ناحيتها، وما إن أفتح فمي لأتكلم وأغير مجرى الكلام أجدها بكت وتذمرت وحولت الأمر البسيط إلى مشكلة، ثم تتجهم في وجهي لأيام.

وأتفاجأ أن أهلها وأهلي والجيران يعرفون شكواها المستمرة مني وأن الحياة معي لا تطاق وأني لا أكفي احتياجات بيتي وأني غير جدير بالمسئولية، لا أفهم لماذا تفعل كل ذلك، لماذا تهوى دائمًا إثارة المشاكل؟ لماذا تبكي وتنتحب وتظهر دائمًا في دور المظلومة البريئة التي تعيش مع رجل ظالم؟

وبالطبع حديثي مع أهلها أو حتى أهلي لا يجدي نفعًا، فكيف وقد أبكيتها كل هذا البكاء وظلمتها كل هذا الظلم؟ لا أحد يفهمني ولا يسمعني أو يضع نفسه مكاني، أعصابي دائمة التوتر والقلق، فكيف أهدأ وكل محادثاتي معها تنتهي ببكاء وشكوى ومشاكل؟

- أي حديث عادي؟!

- نعم.. أي حديث عادي يتحول في لحظة إلى شكوى ونحيب يصل لكل الناس، وينظرون إليّ كما ينظرون إلى متهم، ولا أعرف كيف أدافع عن نفسي وقد قلبتهم كلهم ضدي، فضلاً عن فضح أسرارنا بهذا الشكل والسماح لهم بالتدخل في حياتنا الأسرية، فأنا دائمًا في وضع دفاع ومحاولات غير مجدية لإصلاح الأمور بيننا.

- والأولاد؟

- لدي ولدان وبنت في أعمار متقاربة، أشعر بهم.. فهم جميعًا في توتر وحزن دائمين بسبب خلافاتنا التي لا تنتهي.

- ألا يوجد من أهلها رجل عاقل رشيد يوفق بينكما وينصح لها؟

- عمها رجل صالح يسمع ويفهم ويعرف طبعها جيدًا، ولكن - كما قلت لك - هي تفرض سيطرتها بدموعها وتقلب الحقائق لصالحها وتعرف جيدًا كيف تظهر أمام الجميع بالمظهر الذي تريده، وحتى إذا تعاطف معي عمها فهل سيعيش معنا في بيتنا ليمنعها من كل تصرفاتها؟!

- ولكن يا سيد عزيز كل إنسان له مفتاح ومدخل يمكن التفاهم به معه.

- الحل الوحيد لإفساح أي مجال للتفاهم هو تنفيذ ما تريد.

- في الحالات التي يكون فيها أبناء أتريث كثيرًا قبل أن أنصح بالطلاق فهو آخر الحلول التي يمكن اللجوء إليها، ولكن يمكن كسر سلطتها بألا تُنفذ أمرها مهما بلغت الضغوط التي تحيطك بها، وتقف موقفًا جادًا ضد بكائها ومشاكلها حتى تستيقن أن هذا الأسلوب لم يعد يُجدي نفعًا.

أشاح بيده في يأس وقال في استسلام: كلها محاولات فاشلة، أنا أعرفها جيدًا.

ثم قال بحسم: لقد قررت قرارًا نهائيًا أن أطلقها.. على الأقل ليعيش أولادي حياة مستقرة هادئة، وهذا ما عزمت عليه ولا رجعة فيه.

- إذن.. لماذا جئتني مادمت أخذت قرارك ولا تحتاج لمشورة؟

- جئتك فقط لأبين لك أنه ليست كل النساء بريئات كما تصورين للقراء في مقالاتك والمشكلات التي تعرضينها، لأقول إنه كما توجد نساء معذبات فهناك أيضًا رجال معذبين ولم يكن جحيمهم سوى امرأة..

- أنت لا تتخيل كمّ المآسي التي ترسل لي من النساء.

- فلتنظري إلى الجانب الاخر لتري الصورة كاملة..

- هل تركت أعمالك وخصصت جزءًا من وقتك فقط لتأتي إلى هنا وتقول لي هذا الكلام؟!

ارتجفت شفتاه ثم قال بألم لا يخفى على عين: لعلي أجد من ينصت لي.. أستأذنك..

قاما معًا وقالت له: أشكرك على مجيئك يا سيد عزيز، وأتمنى لك كل التوفيق في حل مشكلتك.

ابتسم فجأة كأنما تذكر شيئًا: أتعرفين أنك أول إنسان يسمعني ويفهمني منذ فترة طويلة؟! أشكرك بشدة أنك أعطيتني الفرصة ومنحتني جزءًا من وقتك كنت في أمس الحاجة إليه.. إنني فعلاً أقدر ذلك، وفقك الله.. السلام عليكم.

ردت عليه التحية وتأملت وجهه وهو يخطو نحو الباب.. انكسار ملامحه كان جليًا، خطواته تنم عن يأس ومرارة، صوته رافض للطلاق وفيه انهزام مكبوت وكأنه آخر ما لديه، عيناه مرهقتان تفصحان عن حياة ملأها الكثير من الخذلان.

تنهدت ورجعت إلى عملها وانهمكت في الرد على الرسائل، حتى أتاها اتصال يغيب طويلاً ولكنه يسعدها كثيرًا.. إنها سوزان..

أجابت بفرحة غامرة: سوزان.. كيف حالك؟! أفتقدك بشدة.

- وأنتِ أيضًا لا تعلمين كم اشتقت إليك.

- آخر اتصال بيننا كان من ستة أشهر أيتها الغادرة.

وضحكتا في سعادة حتى هدأ صوت سوزان: لقد قررت قرارًا مصيريًا في حياتي.. سأرجع إلى مصر وأقيم فيها إقامة دائمة.

بهتت أميرة من هذا القرار المفاجئ..

- ماذا حدث؟! هل بدأت تحنين إلى بلدك أخيرًا؟ فما رأيتك إلا زائرة.

تنفست سوزان بعمق لتزيح ما في قلبها: إنني متعبة للغاية، لقد خدعت نفسي كل هذه الأعوام، لم تتبدد عني غربتي يومًا، عشت غريبة في بلدي ولم يتركني الخواء أيضًا في أي بلد زرته، كانت الغربة هي وطني وهي الصديق الوحيد الذي رافقني طوال رحلتي..

- ولكنك حققت نجاحات هناك.

- نعم.. أدرت أعمال أبي في أمريكا وأدرت صفقات في بلاد أخرى، ولكني لم أعد أتحمل.. كما أنه يوجد سبب آخر.. سأتزوج.

شهقت أميرة من الفرحة: أخيرًا!! ، مبارك عليك الزواج يا عزيزتي، من سعيد الحظ؟

ردت بلا اهتمام: ومن سيكون؟ رجل أعمال أيضاً، لا تفرحي كل هذا الفرح.. إنه جزء من صفقة كبرى في حياتي.

صعقت أميرة مما قالته صديقتها: لم يكن للمال والمصالح مكان في عينيك، أهذه هي الزيجة التي ستروي بها غربتك بعد أن شارفتِ على الأربعين؟! ، كنتِ دائمًا لا تخسرين معاركك أبدًا.. والآن.. أحنيتِ رأسك.

ردت بتماسك مزيف: دعيني أطأ أرضًا جديدة.

- سوزان.. تخلي عن أي صفة من صفاتك ولكن أرجوك تمسكي بالجيد منها.

غيرت صديقتها مجرى الحديث كليًا: ألم تقابلي عمر؟ لقد استقر في مصر أيضًا..

*****

جهزت نفسها لحضور حفل الزفاف، وقبل أن ترتدي حجابها سكنت لبرهة متأملة وجهها في المرآة.. ولجأت لصديقها الصدوق الذي لا يخذلها أبدًا.. صندوق خواطرها:

" كل يوم أنظر في المرآة.. أحاول تلمس ملامح كانت يومًا رائعة.. مرحة.. بريئة، أحاول إقناع نفسي بأني مازلت جميلة.. فلا يطل من المرآة غير وجه به خطوط تحكي ما تهدم بداخلي ولا يمكن إقامته مرة أخرى،

تواجهني مرآتي بوجهي لا بوجه أصبحت ماهرة في رسمه، وتؤلمني خطوط رسمها طريق عارٍ من الظلال مشيته وحدي ولم يصاحبني فيه إلا الألم.."

أنهت زينتها وأسرعت إلى الحفل، طمأنت قلبها أنها حتمًا ستراه هناك.. وتمنت لو يراها كما كان يراها دائمًا..

دخلت القاعة.. تبحث عمن تعرفهم ولكنها فوجئت بسيد الجمال.. شحب وجهها وهو يشير إليها، فجلست بجانبه على الطاولة. ابتسم لها ابتسامة خبيثة وقال:

هل صُدمت حين رأيتني؟ كان متوقعًا أن تريني هنا أنا وكل الشخصيات العامة.

- لم أقصد يا عمي، أنت تعلم مقدارك عندي.

- وأنا أعلم لِمَ شحب وجهك، كامل ليس معي..

تنفست بعمق وراحة فلاحقها بكلماته: إنه في دورة المياه وسيلحق بنا فورًا..

وقهقه بضحكة عالية ألجمتها وخيبت رجاءها، وتمنت لو تستطيع القيام والذهاب إلى الجحيم بكامل إرادتها..

حادثت نفسها متذمرة بصوت خفيض: لعله يستمتع بواحدة ممن يعرفهن وسيلحق بنا بعدما ينتهي منها.

أتى في كامل هيئته واتزانه بابتسامة واسعة حينما رآها، وبدأ الحفل وهي تنظر في كل اتجاه تتحاشى نظراته باحثة عن عمر، وكلما مر الوقت زاد تعجبها وقلقها.. ألن يحضر حفل زفاف أخته؟!

كانت عينا سوزان في كامل السعادة ووجهها ينطق بالإقبال على الدنيا والفرحة، كل ذلك كان ظاهرًا للعيان.. أما أميرة فكانت ترى وجهها الكامن خلف ابتسامتها، وتعجبت لصديقتها التي غيرتها الأيام.. وسرحت معها تتأمل ملامحها.. وتفكر:

قيل عنها مرآة الروح.. فكيف أصبحت العيون مزيفة إلى هذا الحد؟!! وكيف تلثمت الوجوه بملامح خادعة بكل هذه البساطة؟!

أدارت وجهها نحو الجميع.. وجوه مبتسمة كل تفاصيلها توحي بفرح وحلم وأمل.. ووراءها خطوط منكسرة حزينة.. حرباء قابعة خلف الملامح تتلون حسب الموقف، تخفي انهيارًا يعجز عن التعبير عن نفسه..

فابتسمت بأسى وأشاحت بوجهها عنهم لتفيق من تأملاتها على صوته يهمس في أذنها، أدارت رأسها إليه فلم يعطها فرصة الرفض أو القبول.. لقد بدأت فقرة الرقص الهادئ على أنغام الموسيقى.. أمسك بيدها

وأحكم قبضته عليها فقامت معه أمام الجميع ليتراقصا معًا.. تاهت فى عينيه فشاهدت فيهما أنقاض حب جميل.. ابتعلت ريقها وانساقت له فأراح رأسها على كتفه.

" ها أنا أتراقص مع ألمي.. أتعذب منه وأترك نفسي له.. أستسلم، دقات قلبى تمتزج بدقات الموسيقى الهادئة.. أحتضنه بشدة.. أبكي على كتفه وصدره وعلى أعتاب بقايا قلب، تلاحمنا.. انصهرنا فأصبحت أنا والألم كيانًا واحدًا.."

**

كان لديها شعور قوي أنها آتية.. أخيرًا جاءتها الرسالة التي كانت تنتظرها من عالم الأحلام لتنقذها من واقعها..

ذهبت في الموعد لتقابل الرجل الذي ظنت أنها نسيته عندما تزوجت غيره، الرجل الذي كانت له لمسة وبصمة مختلفة في حياتها.. الرجل الذي حينما رأته بعد غياب طويل وفراق ثارت داخلها مشاعرها الكامنة إلى السطح.. الرجل الذي أحيتها ابتسامته.. وذكراه في قلبها.

- عمر..

قالتها مبتسمة وقد أشرق وجهه ببسمة واسعة هادئة عندما رآها. وبعد التحية قال:

أنا سعيد لموافقتك على مقابلتي، كنت أتوقع أنك ستعتذرين لانشغالك الدائم.

- لا أحد يتأخر عن صديق قديم مهما بلغ انشغاله.

- صديق؟!

ارتبكت ونظرت بسرعة إلى الاتجاه الآخر، وقالت:

قل لي.. ماذا فعلت في الأعوام الماضية؟ وكيف هي حياتك الآن؟

- سافرت إلى أماكن كثيرة في العالم، حصلت على الماجيستير وعملت، تعرفت على أناس جدد ورأيت الكثير..

وتنهد: وتزوجت وأصبحت أبًا أيضًا..

اقشعر جسدها فجأة برعشة باردة، وحاولت بقدر الإمكان الحفاظ على ابتسامتها، واستطرد كأنما أحس بما في داخلها:

مثلك أنتِ.. أحببتِ وتزوجتِ أيضًا.

ردت بضحكة بلهاء: أعلم أنك كنت تعرف أخباري من سوزان.

رد بنبرة ذات معنى: كنت أصر على أن أعرف أخبارك في أي مكان زرته في العالم، على الرغم أني كنت أعلم جيدًا أنك كنتِ تحذرين السؤال عني، بل لم تتعقبي أخباري من الأساس..

تجاهلت ما يرمي إليه: جميل أن تتزوج ويصبح لك زوجة تحبها رغم أنك كنت ترفض الزواج، احكِ لي كيف تزوجت.

حاولت أن تتلمس أي سبب آخر لزواجه ولكنه فاجأها:

اسمها هالة.. أحببتها وتزوجتها حينما رأيت طبعها البسيط المتحرر.. الضحكة لا تفارقها، وجهها جميل يتألق باندفاعها بحب الحياة وعشق كل شيء، كانت طاقة متجددة من الأمل والسعادة..

- كانت؟ ماذا حدث؟

غشى وجهه الحزن وهو يقول: لم نشرب شيئًا.

صاحت ضاحكة: لا لا.. إنني جائعة.

- سأطلب لك غداءً على ذوقي.

وبعد انصراف النادل ظلت عيناها معلقة به تريد كشف ما حدث.

- عمَ كنا نتحدث؟

- زوجتك.

- نعم.. كنت أحبها حبًا شديدًا.. تعلقت بها سريعًا، وزاد من تفاهمنا أنها كانت تُفكر بطريقتي، شعرت أنها خُلقت لي.. من أجلي.

مع كل كلمة تصاعدت حدة الرجفة الباردة في جسدها رغم أن الجو لم يكن باردًا، لهت نفسها بشرب القليل من الماء حتى لا يلاحظ وجهها.

- ولكن تحررها الزائد جعلني للحظة أشك.. عشت أيامًا وشهورًا في جحيم بعدما دخل هذا الإحساس الملعون إلى قلبي، كانت تخرج كثيرًا.. لها أصدقاء من النساء والرجال، هم أزواج صديقاتها أيضًا، تتراقص بخفة ومرح في أي حفلة تجمعنا معًا، وكثيرًا ما كان يعلو صراخنا بعد عودتنا إلى المنزل، كنت أتميز غيظًا حينما أراها تُراقص أحدهم،

شعرت بلطمة أفقدتني صوابي، وأحسست بجرح غائر في كرامتي.. وقلبي أيضًا.

- ألم تقل إنها متحررة مثلك؟ يبدو أن هذا طبعها ولا تقصد شيئًا.

رد مبتسمًا: قلت لك من قبل أنا لست متحررًا.. بل أنتِ المتشددة.

بلعت ريقها وقالت ببطء: أمازلت تذكر؟

أكمل حديثه كأن لم يسمعها، وراحت الابتسامة من عينيه: وحاولت كثيرًا أن تغير من تصرفاتها لترضيني، ولكن للأسف ما إن يدخل الشك في قلب الرجل.. فإنه لا يخرج منه إلا بدليل قاطع.. أو.. مصيبة.

- مصيبة؟!

- نعم.. مصيبة، ظللت قلقًا من ناحيتها حتى جاء ذلك اليوم الذي كسرني وغير حياتي.. فارقتني.. كان حادثًا بشعًا، قاومت آثاره لأيام تعذبت فيها في المستشفى حتى ماتت وتركتني للعذاب وحدي.

اعتلت الصدمة وجهها ونفذت إلى عينيه.. ودموعه كانت على وشك الانفجار، ولكنه تماسك وقال:

في اللحظة التي وصلني فيها خبر الحادثة توقعت أنها كانت برفقة رجل آخر في السيارة، ولكني اكتشفت أن الذي كان في المقعد بجوارها..

هدية، كان يوم مولدي! ولم تنجلي لحظات حبها ومحاولة إرضائها لي إلا في تلك الأيام العصيبة قبل وفاتها، ولازلت أعيش بذنب أحاول التكفير عنه في ابنتي.. وكأن الموت هو الذي صالح قلبينا معًا قبل أن يفرقنا إلى الأبد.

طغى الصمت على جلستهما وجاء النادل ووضع الطعام على الطاولة وذهب، حاولت كسر الصمت بقول شيء من الرثاء:

آسفة بشدة أني سألتك.. لم أقصد الضغط عليك لتحكي هذا الماضي المؤلم.

استمر في الحكي: لم نكن في مصر، كنا في قبرص.. رحلة استجمام، وداليا الجميلة.. ابنتي.. كانت تبلغ من العمر ثلاث سنوات، مازلت أتذكر اليوم الذي سبق الحادثة وهي تلبس لباس البحر الذي كان يضحك على جسدها الصغير وتلعب وتجري أمامنا في فرح على الشاطئ.

وتلاشى ظلام وجهه وعاد لمرحه: سترينها بالتأكيد.. قريبًا، وأنتِ؟

فهمت مغزى سؤاله فافتعلت الانشغال بالطعام وقالت ببرود: أنا ماذا؟

- لم تحدثيني عما فات من حياتك، فكل ما أعرفه أنك تحلين مشاكل النساء.

وأعقبها بابتسامة فيها نبرة سخرية..

- كيف لا أتكلم عن مشاكل ومشاعر المرأة وهي مؤثرة بصورة جذرية في المجتمع.. تقيمه وتقصمه.

ركز بصره عليها وكأنه يتحداها: وماذا وجدتِ في ذلك؟! أتنشغلين عن حياتك بحياة الأخريات؟ أتنسين ألمك في آلامهن؟ أنا لا يهمني مشاكل الغير ولا المرأة ولا أقيم وزنًا للمشاكل الأسرية وبلايا المجتمع، فما بالك بالقضايا الكبرى التي تفرض خناقها علينا ليل نهار؟ لقد فقدت اهتمامي بالعالم كله.. كلهم باعوا.. كل شيء.. باعونا وباعوا القضية.. حتى القضية هي أيضًا باعت نفسها.

أعادت تأملها له.. شعرت كأنه إنسان جديد لم يمشِ في الزمن ليحقق نجاحًا.. بل مشى الزمان عليه وترك بصمته في صوته ووجهه وعينيه.

- حدثيني عن حياتك الخاصة، هل أنتِ سعيدة مع زوجك؟

ردت بوجه حاولت بكل استطاعتها أن تعطيه صبغة الثقة بالنفس واللامبالاة:

أنا مطلقة.

مر على شفتيه خيط من الفرح ما لبث أن قطعه وقال:

توقعت ذلك.. فأنتِ مخلصة. ما كنتِ لتقابلي رجلاً وأنتِ متزوجة.

- كنت أتوقع مقابلتك في حفل زواج سوزان.

تغير وجهه: رفضت الحضور بشدة. كنت أتمنى أن أراها عروسًا مع رجل تحبه لا مع من تقضي معه مصالحها.. على الرغم أنها غير محتاجة لصفقات أكثر مما حققت.

نظرت إلى الجانب الآخر محاولة الظهور بمظهر الشجاعة وهي تلقي عليه السؤال الذي حيرها منذ أن قرأت رسالته. أخذت نفسًا عميقًا وقالت بهدوء:

لماذا؟

- عمّ تسألين؟

- لماذا دخلت حياتي مرة أخرى بعد غياب؟ لماذا تلمست أخباري؟

- ولماذا لم تتلمسي أخباري؟!

- كنت أحاول أن أكون مخلصة لزوجي.

- أما أنا فبحثت عنكِ لأراكِ مرة أخرى.

- ردّ على سؤالي وكفى مراوغة.. لماذا؟ لقد أصبح لكل منا حياته المختلفة وهمومه التي تغنيه عن الماضي.

أرجع ظهره إلى الوراء ورد بحيرة آخذًا نفسًا عميقًا: هذا سؤال أصعب من أن أجيب عليه.

نظرت في عينيه.. مازالت تستطيع بكل جدارة معرفة ما إذا كان صادقًا أو يخفي شيئًا، وها هي عيناه تصرخان بالصدق والجرح.

- ليس مهمًا أن أعرف السبب، قد يكون بحثي عنك لأجد جدارًا أستند إليه بعد أن تهاوت بي الدنيا.. أو بسبب أنني لم أجد في الحاضر والمستقبل ما يؤنس وحدتي فجئت أتلمس من الماضي سكنًا ودفئًا، أو بسبب صوت في أعماقي حاولت إخراسه طويلاً ولكنه أبدًا لا يكف عن الصراخ في أذني.. لا تهم الأسباب بقدر أننا معًا الآن.. وبعد كل هذه السنين.

ضاعت منها الكلمات فلم تبحث عنها، بل تركت نفسها لهذا السيل الجارف من الاحساس الذي حرمت منه واشتاقت إليه طويلاً..

- يعجبني سكوتك هذا.. صمتك الذي كان يُحيي في نفسي أملاً وحماسًا للحياة.. رغم كل ما كان حولنا وما أبعدنا عن بعضنا.. أخطاؤنا وضحكاتنا وهمهماتنا في الهاتف عندما كنا أصغر وأكثر إقبالاً على الحياة.. معك.. أستنشق الهواء بروحي لا برئتي وكأني ارتددت طفلاً

صغيرًا ضائعًا بين يديك.. وأحلم وأنا بريء أبيض القلب.. كم كنت أحمق حينما تركتك ترحلين من حياتي..

استعادت تماسكها رغم كلماته التي أذابت عروقها: أليس هذا غريبًا في أول لقاء بعد سنوات عديدة؟! ألا تقلق من قول هذا الكلام؟ فما أدراك أن ذكراك مازالت تعيش داخلي؟ أو أنني ربما مازلت أحب زوجي السابق وأنوي الرجوع إليه؟

رد بسرعة: مستحيل.

- ما هو المستحيل؟

- أنتِ لا تضيعين مستقبلك من أجل ماضيك، أنا أعلم ذلك جيدًا.

- أنت جزء من الماضي.

- لا.. جزء منه مازال حيًا داخلنا رغم مرور كل هذه الأحداث المريرة بثقلها علينا.

- لقد أصبحت هادئًا حكيمًا بعد أن كنت فارسًا يملأ الدنيا بصخبه.

رد بخفوت: ربما.. فهناك أشياء إذا حدثت في الحياة يصعب الابتسام بعدها.

أصبح الصمت هو البطل للمرة الثانية في الحوار حتى قطعته هي وتهيأت للذهاب، وهي تقول بابتسامة واسعة: أتمنى أن أرى ابنتك في المرة القادمة.

تغير وجهه، لحقها بعينيه وقال بخيبة أمل: هل ستذهبين الآن؟

أجابته بحسم: نعم.. سعدت بلقائك.

ومشت وقدمها تكاد ترجع من تلقاء نفسها.. وكلما بعدت أكثر أظلم شيء في قلبها كان متوهجًا منذ لحظات..

*****

ورغم أن باب الأمل أصبح مواربًا إلا أنها لم تستطع الهروب من ذكرى مميتة، الصور التي أُرسلت إليها.. تُلح بقسوة على عقلها كأن كل حياتها مسحت ولم يبقَ سوى تلك اللقطة..

حينها تشكلت تفاصيل الصورة في نفسها أكثر فأكثر.. صورة الألم، كشف وجهه الحقيقي حين رأت زوجها في أحضان أخرى، اكتملت الصورة تمامًا بكل ملامحها البغيضة المخيفة، وضاعت كل ضلالات الأوهام والآمال الكاذبة التي زادت من وجعها.

زوجها مع أخرى.. سعيد معها.. يستمتعان معًا بلحظات هانئة حُرمت هي منها وحلت محلها أشياء كثيرة فُقدت منها مع الأيام ولا تستطيع التأقلم على الحياة من دونها.

زوجها مع أخرى.. تختلط حرارة أنفاسه بلهيب أنفاسها.. يهتم بها.. يُسعدها، يمتزج كيانه بكيانها.. وصاحبت صورة الألم صورة زوج مزيف لتشكلا صورة كبرى للخيانة.

أمسكت صندوق خواطرها وقد حضرت الذكرى بكامل هيئتها.. أبواب من الحديد أُوصدت على عقلها، أُغلقت على تفكير مجنون فيه كل الخواطر السيئة.. القتل.. الانتحار.. الانتقام، ولكن كان الأقرب لفعلها هو الصراخ.. صراخ صامت مزموم لا يسمعه غيرها، ترددت أصداؤه في جنباتها.. تؤلمها.. تمزقها.. تُلقي بها في أسفل دركات الجحيم..

هذا هو الوجه الذي لم تره منه.. منذ أحبته، وجه أفصح عن نفسه في لحظة شقت صدرها وأخرجت كل ما هو جميل منه، وتبقت فقط أحاسيس معذبة رسمت على وجهها خطوط منكسرة لم يألفها قلبها..

فتحت أوراقها تُقلب فيها واستحضرت صورة كل من عارض فكرة الطلاق بعد حدوثه، وتوقفت عند:

"حزن عميق يعصف بي.. يسخر من كل ضحكاتي العابثة المزيفة.. وانتصر الزيف عليّ وأكسبني بريقه الخادع، وعجبت لألم كان أخلص

لى من أحبائى وأصدقائى.. لا يبرحني إلا بالموت، موت روحي لا جسدي.. وخلف من بعده قرينه.. اليأس.

أتتني بك أحلامي فصدمتني حين رأيتها فارغة اليد كاذبة، عصفت بما تبقى لدي من أمل وتركت لي الحسرة فزاد خواء نفسي إلى ضياع.

الخذلان.. الغدر.. الخيانة.. كلها تقتلك وأنت حي، تتغذى عليك.. تُقارع كأس دمائك مع اليأس في حفلة أُقيمت على شرف جثتك.. أصارع بقاياك داخلي.. أصرعها وتصرعني ولكنها في النهاية تنتصر.. الوحدة.

بعض مني مكسور أحاول ترميمه أو وضع آثاره جانبًا لأستطيع العيش، ولكن دوامات العذاب تجتاحني.. تُخرّب كل ما بداخلي، تعتصر قلبي بين لهيبها.. تنتزعني من نفسي وتُلقي بي فى الهاوية..

وقُصم ظهري.. و تبقى هامتي مرفوعة.. تُخفي وجعًا وراء عليائها ".

أغلقت خواطرها وهي تفكر.. هل تعطي فرصة للحب أن يدخل حياتها مرة أخرى؟! هل تفسح لعمر الطريق أم تتركه وترحل هربًا من أي وجع جديد؟ هل ما هو قادم هو تكرار ثالث لكلمة (اليأس) في صندوق خواطرها أم فجر جديد؟

*****

غمر الأمل حياتها بعدها ليعطيها وجهًا جديدًا.. وجهًا أجمل رأته في ابنة عمر حيث ما كانت تنتظره.. رأت في عينيها الصغيرتين أيامها القادمة وروحها الهادئة بعد حيرة.. ووجدت فيهما فرصة جديدة لأحلامها التي انهزمت وحياتها التي أعطت ظهرها لها، وبشرتها بحب جديد أتى على بقايا حب خلّفها وراءه، وتنهدت لحالها.. فما أروع إحساس الأمومة، وانسحقت الأجواء الغادرة في نفسها تحت شمس لعبت في ظلها مع الطفلة الجميلة.

وتكرر خروجهم معًا وأميرة تطير من النشوى، فداليا هي نسخة مصغرة منه ولكنها أنقى وأكثر براءة..

وفي يوم اتصل بها وطلب منها لقاءً في الشقة التي شهدت حبهما.. وفراقهما.

فتح الباب وهو مندهش في سعادة وقال برقة: كنت أعلم جيدًا أنك لم تنسي هذا المكان.

أفسح لها الطريق لتدخل وأجلسها..

- أريد أن أريك شيئًا كان يجب أن تريه منذ سنوات عديدة، ودخل الغرفة اليمنى وغاب قليلاً وخرج بكراس رسم كبير وجلس بجوارها.. تأملت وجهه مبتسمة ثم نظرت لأول رسمة..

رد على ابتسامتها: إنها عيناكِ.. ووجهكِ.

قلبت الورقة فرأت نفس العينين والوجه ولكن بتعبير مختلف..

- إنها عيناكِ وأنتِ غاضبة..

ظل يريها عينيها في الفرح والحزن والضيق والسعادة والدهشة وكأنه أدار لها حياتها أمامها.. نظرت إليه منبهرة من السعادة..

همس في أذنها: هذه هي أغلى رسومات رسمتها في حياتي.. لذلك حافظت عليها جيدًا بعيدًا عن باقي أعمالي، كانت تؤنسني في وحدتي وألمي.. ومرحي وجنوني وعذابي.

ثم قام وشد يدها وقال: وأردت أيضًا أن أريك رسومات أخرى.

أدخلها الحجرة اليمنى لتجد أمامها لوحات لامرأة عارية إحداها معلقة على الجدار والباقي مركون على الأرض.

- من هذه؟!

- موديل..

أخذ نفسًا عميقًا ليستعد لما سيقوله: بعد أن تركتني كان جرحي شديدا، لم أستطع الرجوع ولا الاستمرار فارتكبت أشياء ندمت عليها فيما بعد.

صاحت من الصدمة: أنت من رسم هذه اللوحات؟!

- نعم..

ألجمت تلك الحروف الثلاثة لسانها..

- أنا لم أخطئ أنني رسمتها.. هذا فن، ولكنك لا تفهمينه.

- فن؟!!

- أميرة.. أردت أن أريك حالي بعدك، أردت أن تشاركيني وأعترف لك بسنوات ضاعت منا.

تجاهلت كلامه وقالت بحدة: وهل كانت مجرد موديل أم زادت علاقتكما إلى ما وراء ذلك؟

رد بعد برهة من الصمت: هذا هو خطأي الذي كنت سأعترف به..

نظرت إليه غاضبة فقال مدافعًا: ماذا كنتِ تنتظرين مني فعله؟! لقد كنت ضائعًا.. كنت...

قاطعته: هذا ليس مبررًا، من هي؟ هل أعرفها؟

- لا تعرفينها.. لقد أردت أن أبدأ حياتي معك من جديد على صراحة، كانت مجرد نزوة وراحت مع الأيام.

- أرجوك لا تقل هذه الكلمة مرة أخرى!! وأجبني من هي؟ هذا الوجه ليس غريبًا عليّ.

- أرجوك اهدأي.. أتغضبين لعلاقة عابرة مرت عليها سنين؟!

همست بأسى: أنسيتني بهذه السرعة؟

- لقد عزمت على أن أريك رسمة عينيك لتعرفي كم أنتِ غالية عندي ولم أكن أرى أمامي سواك.

صرخت: إذن لماذا؟ لماذا امرأة أخرى؟

- قلت لك السبب..

- أردت أن تخرج عذابك في امرأة أخرى، أنت ككل الرجال.. كلكم تريدون المرأة عارية فقط، تفكرون في أنفسكم ولا تهتمون بكرامتها ولا مشاعرها ولا أحاسيسها.

صاح لصياحها: هذا ليس رد فعلك على ما عرفته عني، لا تدعي خيانة زوجك لك تُغمض عينيك وتظلمي بها كل من أمامك.. حتى أنا.

حملقت عيناها وشهقت من المفاجأة: كيف عرفت أن زوجي خانني؟

تلعثم: الأقوال تتناثر..

قاطعته بإصرار: كيف عرفت؟! لا أحد يعرف إلا أنا وهو.

قال بخفوت: بعد وفاة زوجتي ورجوعي من السفر تعقبت أخبارك، وعندما شككت في سلوك زوجك راقبته.

- لا أصدق.. لا أصدق..

ارتعش جسدها فوضع يده على كتفيها لتهدأ، فرفعت يده بانتفاضة من جسدها، فدافع عن نفسه:

أميرة.. لم يكن لي أمل سواك.. لقد رجعت من أجلك.

- أنا بالنسبة لك مجرد جزء من الماضي حاولت أن تتلمس فيه أملاً يداوي لك جرحك أو تكفر فيه عن ذنب لا دخل لي فيه، أنت لم تبحث عني إلا بعد وفاة زوجتك.. أنا لست إلا بديلاً.

- كلام فارغ.. زوجتي ماتت منذ ثلاث سنوات، ولم يتبقَ لي من الدنيا غيركِ أنتِ وابنتي.

قالت وكأنها لم تسمعه: أنت تأتي بالنساء لترسمهن عاريات وتفعل ما يحلو لك، أنت لم تحبني.

علا صوته بنبرة هازئة: ما هذا الكلام عديم المعنى؟! الكلام الذي تحفظينه عن حقوق المرأة والإنسان وعلاقة الرجل بالمرأة في مجتمعنا، فليذهب كل رجال ونساء العالم إلى الجحيم.

ثم لان صوته: انظري لرجل واحد وامرأة واحدة.. أنا وأنت.. رجل أحبك حبًا لم يتأثر مع الأيام، وظللت كامنة في جانب خفي من قلبه ولكنه

حاضر يضغط عليه بالذكرى، لقد رأيتك في زوجتي.. أحببتها لأنها كانت تُشبهك.. فيها روحك.. ابتسامتك.. طبيعتك، ومازاد من إعجابي بها شخصيتها الحرة من كل القيود.. الشخصية التي كنت أريدها فيك.. لقد كانت أنتِ في صورة أجمل، رأيت فيها فرصتي الأخيرة الضائعة فيك، ولكن - وبعد كل هذه السنوات - أردت أن أعود للصورة الأصلية.. أعود لحب فرطت فيه يومًا وعشت من بعده نادمًا.

-كل هذا لا يُجدي نفعًا معي.

وهمت بالانصراف ولكنه شدها من ذراعها وأسند ظهرها إلى الحائط، وقال:

كيف أصبحتِ هكذا؟ ما كل هذا العناد والقسوة؟ من أين أتاكِ هذا التصلب والحزم؟! انظري إليّ.. أفلا تحبينني كما أحبك؟ ألم يضطرم قلبك ويرتجف وجدانك عندما رأيتني بعد كل هذه المدة القاسية لكلانا؟

اختلج صوتها وقالت بصوت خافت مستسلم: أنا.. أنا..

أمسك ذراعيها وثبتهما إلى الحائط أكثر واقترب منها بشوق، مس بشفتيه وجنتها في أنفاس لاهثة ووجد روحه بين شفتيها، كانت قبلته تفيض لهفة.. حرمانًا.. وخذلانًا من السنين، كان ضائعًا في الصحراء ووجد الماء أخيرًا، وهي فقدت تحكمها وسيطرتها على أعصابها ونفسها، تحركت رأسها ببطء بين قبلاته وتحت لوحة المرأة العارية.. وطغى صوت أنفاسه المتقطعة على كل شيء..

حاولت دفع القوة في يدها لتبعده عنها ولكنها ضعفت واستكانت.. واستسلمت لذلك الشعور الجميل، فما إن وضعت يدها على كتفه حتى تباعدت شفتاهما ببطء في لحظة ميلاد، هل كانت قبلة أم بعثًا للحياة؟ واحتوى رأسها بين يديه وأخذ يتأمل وجهها كأنه يرسم تفاصيل روحها بروحه، وضمها إلى صدره في نشوة لقاء غريب تاه عن أرضه طويلاً.. فوجدت وطنها بين ذراعيه.. همس بصوت هادئ حنون لم تعرف أخرج من قلبه أم كان في داخلها:

لا يهم إذا توقف الزمان وانتهى كل الوجود ولم يتبقَ سوى عيناكِ وآثار شفتيك على فمي.. لا يهم أن أضيع بين يديك ولكن المهم ألا تضيعي من بين يدي.

أفاقا على صوت هاتفها المحمول الذي وضعته بالخارج، فأبعدت رأسها التي كانت تريحها على كتفه، فهمهم بحنو خلف أذنها:

انتظري سأحضره لك.

خرج من الغرفة وتركها في حالة غير طبيعية من النشوى والهيام.. فما أجمل العيش بين يديه.. حاولت استعادة تصلب ركبتيها ونظرت حولها إلى اللوحات والأوراق الملقاة جانبًا في إهمال.. سمعت صوته من الصالة:

انتهى الرنين قبل أن أصل إلى الهاتف، سأدخل المطبخ لأعد لنا شيئًا نشربه.

خرجت لترى من طلبها.. رفعت رأسها لأعلى في ملل.. إنه سيد الجمال حماها السابق، فرمت الهاتف وجلست لتفتح حاسوبه المحمول، أثارتها رؤية ملفاته الخاصة به، ابتسمت وهي ترى صوره مع زملائه في العمل، كان في داخلها شيء لا إرادي يبحث عن صورة له مع زوجته المتوفاه، هل صورهما معًا فيها سعادة ودفء؟ هل كانت في عينيه نفس الراحة التي تراها فيها؟ وزوجته.. كيف كان شكلها؟

تساؤلات كثيرة دارت في عقلها قبل أن تجد ملفًا بعنوان أجبرها على فتحه، فُتح فمها في دهشة وارتخى جسدها من المفاجأة.. ظلت محملقة فيما رأته، حاولت استكمال الصورة في ذهنها ببطء وهي تتمنى ألا يكون ما فهمته صحيحًا، ولكن خاب ما تمنته فصاحت حانقة: عمر!

جاء بسرعة فزعًا من صوتها العالي المفاجئ..

قالت بصوت تخنقه الدموع: الآن فهمت كل شيء.

**

حاول الدفاع عن نفسه ولكنها ظلت تردد: أنت.. أنت من هدمت حياتي.

- أميرة.. أرجوك لا تتعجلي في حكمك.

- أنت من أرسلت هذه الفتاة إلى زوجي، كم كنت غبية حمقاء حينما لم أدرك الأمر وهو جلي جلاء الشمس!

علا صوته: انصتي لتسمعي.. كامل خائن ونذل من الأساس، لم تكن تلك المرة الأولى التي يخونك فيها.. لقد أرسلتها إليه لأُظهر لك الحقيقة.

- لا.. لقد فعلت هذه اللعبة الحقيرة ليحدث الانفصال بيني وبين زوجي لتُفسح لك الطريق، ألم تسأل نفسك عما سيكون تأثير هذه الصور التي أرسلتها لي على نفسي؟ لقد طعنت قلبي بيدك بكل قسوة.. كل هذا لأجل نفسك.

- زوجك هو الذي طعنك من الخلف وأنتِ لا تدرين، كنتِ تأكلين وتشربين معه وتعيشين هانئة مرتاحة البال على أرض من الكذب والخداع، كان لابد أن تفيقي من هذا الوهم.

استفسرت زائغة النظرات: وهذه الفتاة.. أنت مازلت على علاقة بها، لقد كذبت عليّ.. لم تكن علاقة عابرة فات عليها الزمن ونسيتها.

- أقسم لك إنها علاقة غير مهمة بالمرة، وهي تعرف حدودها ومكانها جيدًا عندي، لم يحدث بيننا أي شيء إلا مرة واحدة بعد تركك هذا المكان منذ سنين.

زاغت عيناها أكثر واضطرب صوتها: كاذب.. أنت كاذب، وهو كاذب.. كلكم كاذبون.

قاطعها بحزم: أفيقي من هذا التيه.. لم أُفسد عليك زوجك ولم تُجبره الفتاة على فعل شيء، هو الذي خانك باختياره، ولو لم تكن هذه الفتاة وُضعت في طريقه لكان فعلها مع أخرى.

أصر لسانها في غيبوبة على تكرار نفس الكلمات وبدت كالمجنونة التي غاب عقلها.

طغى صوته عليها: كنتِ تفضلين العيش سعيدة مخدوعة على أن تصطدمي بالحقيقة، تُحبين من يكذب عليك وتكرهين من يواجهك بالصدق!

ثم خفت صوته فجأة كأنما يكلم نفسه: ترفضين الرسم العاري..

وصرخ: كلنا عراة.. أتسمعين؟ كلنا عراة، ولكننا لا نريد تصديق ذلك، كلنا يحاول تغطية نفسه ويعيش بوجه آخر غير وجهه الأصلي، ولكن

مهما وضعنا من ثياب على ملامحنا وأجسادنا فهذه هي حقيقتنا.. عراة..

أنتِ إنسانة محطمة وتحاولين التلبس بثوب التماسك والقوة، وهو يغطي نفسه بكلمات حب زائفة ولهفة عليك أبت إلا أن تُفصح عن بشاعة زيفها مع باقي النساء، وأنا..

تهدج صوته في ألم: أنا تائه لا أعرف كيف أسترد حبك مرة أخرى، أريد عودة حياتي التي ضاعت مني ولكني لا أعرف كيف ولا متى، ابكي.. اصرخي.. ارفضي كما تشائين فوجهك يفضحك.

- كل من أحببتهم واعتمدت عليهم خذلوني.. حتى أنت، ألا يكفي أن الدنيا حطمتني.. فتعرّيني أيضًا؟

- وأنا أيضًا عارٍ أمامك، أظهر بطبيعتي بكل بساطة، لا أغطي ألمي بوجه صامد مرح لا يهمه شيء، فالآن أصبح عاريًا من الزيف.. عاريًا من الذكريات الجميلة.. عاريًا من ملامحه، وكأنه مسخ اندمجت معه أقنعته فكوّن وجهًا غريبًا عني لا أعرفه، سافرت إلى كل بلاد العالم لأنسى حبك فوجدت العالم كله يتلخص في عينيكِ، فصرت غريبًا كأختي ليس لي وطن، وحرمت في النهاية من جمال أجده في راحة عينيّ ابنتي الجميلتين بعد وفاة أمها.

ثم اتجه إليها بسرعة وقال باستعطاف: دعينا ننسى ما فات، كلنا يخطئ وكلنا له أوجاعه، فلنبدأ معًا من جديد، سأفعل كل ما بوسعي لأجعلك أسعد امرأة في العالم، إنني مستعد أن نتزوج الآن.

أخذت حقيبتها وهاتفها ببطء، فأمسك بيدها ولكنها اتجهت إلى الباب في إصرار حزين دون أن تُغلق الباب خلفها..

فكرت: وماذا بعد؟ لماذا لا تذهب لهذا المكان الذي شهد الكثير من ذكرياتهما إلا وتخرج منه دامعة العينين؟ كيف تبرأ من ألم لا يبرح صدرها وألم يريد اقتحامه؟ وكيف ستواجه أيامها القادمة وعتادها ماضٍ مؤلم؟ تجربة زواج فاشلة وتجربة حب حزينة لم تترك خلفها إلا آثار فراق متكرر؟

اتصل بها سيد الجمال ثانية أثناء قيادتها سيارتها.. ووصلت إليه بوجه راحت من عليه آثار الدموع.

نظر إليها باستعطاف خفي: أميرة.. الوحدة تقتلني، وكامل - كما تعرفين - لا يزورني لفترات طويلة، ابقى معي هذه الليلة.

قبلت رأسه طائعة.. وطلبت من الهواء حولها أن يمدها بالمزيد إلى رئتها، وقامت لتحضر له العشاء، وحمدت الله أن وجودها معه اليوم سيشغلها من سياط التفكير.

جلسا وشاهدا التلفزيون وحاول كل منهما الضحك متسترًا وراءه، ولكن ظل قلبها مثقلاً بالجرح. فاستأذنت لتدخل غرفة النوم الصغيرة لترتاح.. غرفة كامل القديمة.

اقتربت منها بخطوات حذرة.. أضاءتها.. تأملت كل شيء فيها لثانية قبل أن تدخل وتُغلق الباب، تعجبت من الارتياح الذي اجتاحها عندما تمددت على فراشه، فقامت مرة أخرى لتتخلص من قيود ملابسها التي كانت عليها وبحثت عن شيء تلبسه في دولابه، فلبست جلبابًا له يبدو أنه لفترة طويلة لم يُمس، ولكن كان لا يزال فيه عرقه وإحساسها به، زاد ارتياحها بعد ارتدائه وتمددت على الفراش شاعرة بالنعاس.

في دقائق الليل الساكنة تختفي أشياء وتظهر أشياء وبقايا كالدخان لا تستطيع الإمساك بها، وتتكرر صور النهار أمام العين فلا تميز منها الوهم من الحقيقة...، غابت في غفوة خفيفة اختلطت فيها الذكريات بالأحلام، ولكنها أفاقت على باب الغرفة وهو يُفتح..

جلست وهي تحاول التحقق.. هل الكوابيس انتصرت على أحلامها أم أنها عادت إلى عالم الحقيقة؟ كان وجهه مرهقًا بشدة ولكنه تغير لرؤياها، رأت فيه وجهه القديم قبل أن تتزوجه حينما كان مخلصًا لها يحبها بصدق.

جلس بجانبها يدير عينيه في عينيها، ثم قال بصوت خافت فيه الكثير من الحنين:

- كيف حالك؟

حمدت الله دون أن يظهر عليها أي تأثر لدخوله، وكأنها كانت تعرف أنه سيعود لغرفته القديمة، قال بدون مقدمات:

أمازلتِ على رأيك؟

- أصبح كل شيء يجرحني، كلامك هذا.. كلامك السابق.. دقائق حياتك.. حياتي الجديدة المطلقة منك، وحتى حياتي السابقة معك.. كل شيء أصبح جرحًا لي.

- مازلت أحبك..

- من يحب لا يخون.. لا يجرح.. لا يخذل حبيبه.

- هيا بنا نبدأ معًا حياتنا من جديد، أنا مستعد أن أردك إليّ الآن.

أثار هذا القول في قلبها نارًا، هما الاثنان يريدان البدء معها من جديد.. ولكن كيف البدء على الأنقاض؟ ظهرت نارها عليها بسرعة فأعقبت بحزن:

لم يعد ينفع أي شيء الآن.

تنفس نفسًا عميقًا ومازال بصره مركزًا عليها في حنان: شكلك جميل وأنت ترتدين جلبابي.. خاصة أنه يُظهر تفاصيلك.

انفعلت: لم يعد مسموحًا لك أن تتفرسني ولا حتى أن تدخل عليّ أثناء نومى، أنت الآن رجل غريب عني.

مرر ظهر يده برقة على خدها وهمس: ولم لا أرجع قريبًا لك مرة أخرى؟

ارتجفت لرقته التي غابت عنها طويلاً.. همهم بصوت يُغيّب العقل:

أوحشتني.. أوحشتني نظراتك.. صوتك.. أنفاسك..

اقترب منها مستنشقًا هواءها بنعومة، فأغمضت عينيها محاولة السماح لنفسها بإصلاح ما تكسر.. لسد شرخ بداخلها، اقشعرت لصدق مشاعره وهي تشعر بأنفاسه تقترب من وجهها، ولكنها أفاقت على لهيب يلفحها.. يُذكّر قلبها بصورته مع فتاة الفن العاري.. ينبهها لجرح لا يذهب عنها ولا يندمل أبدًا.

فمنعته بسرعة قبل أن يمس شفتيها وقامت من أمامه، أعطته ظهرها مغطية وجهها بيديها، فقام ووضع يده على كتفها وقال:

أعلم أن كبرياءك مازال جريحًا لما حدث، أرجوك سامحيني..

استدارت ونظرت في عينيه.. لاح فيهما بريق من الصدق والإخلاص ما لبث أن تلاشى سريعًا، فأصبحت لا ترى فيهما غير الفتاة التي كان هائمًا في أحضانها بنفس صدقه وإخلاصه لها الآن..

اتجهت نحو الباب وفتحته: تفضل.. ولا تأتي هنا أبدًا إلا بعد استئذان، فلا يصح لك الدخول على امرأة نائمة حتى لو كانت في حجرتك.

رجع ومدد جسده على الفراش ناظرًا إليها باستخفاف ونظرة متحدية، وفك أزرار قميصه ببطء ليظهر صدره، فاشتد ارتجافها.. وفرد ذراعيه وأسند ظهره على الخُدّدية في راحة واسترخاء، ارتبكت ولم تعرف ماذا تفعل وتسارعت أنفاسها.. نظر إليها يتفحصها كاشفًا كل خبايا نفسها، وبدا مثارًا مستمتعًا باضطرابها، وتكلم ببرود قاسٍ:

أتعلمين يا زوجتي العزيزة.. أقصد يا زوجتي السابقة؟ النساء بالنسبة لي مثل الفاكهة، أنتِ الفاكهة المفضلة لدي ولكن يجب بين الحين والآخر أن أتغذى على أخرى حتى لا يصيبني الملل، ثم أعود لفاكهتي المحبوبة، أو أبحث عن فاكهة جديدة لم أذقها.

ردت عليه بنظرة حانقة، فقال:

أيزعجك تشبيهي لك بالفاكهة؟! لقد حافظت على مشاعرك ولم أرد أن أقول إن النساء عندي مثل الجوارب التي تُدفئ قدمي في الشتاء، ولكن يجب تغيير الجوارب باستمرار حتى لو كنتِ أنتِ الأكثر دفئًا.

تملكها الجنون وصرخت: أنت إنسان حقير.. تفضل.

وأشارت بغضب نحو الباب، قام مقتربًا منها: هل تضايقك صراحتي؟!

- ليس كل الرجال سفلة مثلك.

رد ببرود يحمل بين طياته غضب مكتوم: وهل هناك رجال مخلصون يا طليقتي السليطة اللسان؟ هل تعرفين أحدًا منهم؟ مهندسًا مثلاً؟

امتلأت خوفًا من تلميحه الناري ولم تنتبه لتنفسها الصاخب المتسارع.

لان صوته بالحزن فجأة: كنت أشعر دائمًا بوجود جدار بيني وبينك.. حتى في أسعد لحظاتنا. لا أعلم هل هذا جدار بنته يدك أم كان موجودًا من الأساس ولم أره حقًا إلا حين اصطدمت به. أريدك وأحبك وأحتاج إليك.. ولكني لا أقدر على رؤيتك مع رجل غيري، لا أستطيع إيذاءك ولكن حان الوقت لأكسر هذا الجدار.

ردت بصوت مرتعش: ماذا ستفعل؟

واجهها وقد رجع تحديه لها:

أنا رجل ذو نفوذ.. كلمتي تهز أعين الناس في الجرائد، وعيوني في كل مكان ويمكنني فعل أي شيء.

ثارت: قلت لك اخرج، لا أريد أن أراك ثانية.

أمسك بتلابيب جلبابه بيد واحدة ونظر إلى جسدها باحتقار، وقال:

ستعودين لي طائعة وسترتمين في أحضاني بلهفة قريبًا.. جدًا، وستشهقين بين يدي عارية تتمنين مني فعلها معك مرة بعد مرة دون ارتواء، وحينها سأمل منك سريعًا وأبحث عن فاكهتي الجديدة.

خرج وتركها لجرح أكبر ونيران تلتهمها عن آخرها، أغلقت الباب على نفسها بالمفتاح بيد مرتعشة لا تمتلكها، وخلعت الجلباب عنها وألقته على الأرض غير عابئة بالبرودة التي اجتاحت جسدها في أشد أيام الشتاء، ونظرت إلى مرآة حجرته.. لم تستطع مواجهة ملامح وجه تلك المرأة التي تراها أمامها، فهربت من وجهها وأخفته بيديها بسرعة وارتمت على الفراش منهارة في بكاء مرير.

سمعت صوت حماها بعد لحظة من الخارج يقول: سامحيني يا ابنتي.. كنت أتصور أن الأمور ستنصلح بينكما..

**

وقفت رامية كل ثقلها على سور السطح المطل على البيوت القديمة تنفث لهيبًا.. تنظر إليها النوافذ بعيون خاوية من أي تعبير.. لا تسمع لساكنيها صوتًا، فلا تعرف هل خلت البيوت من أصحابها أم أنها لم تعد تميز أي صوت غير صخب أعماقها.. تفكر فيما كان في الصندوق.. تتذكر كل كلمة كتبتها فيه، وتجسدت أمامها صورة كل أوراقها التي كانت تسميها صندوق الخواطر وهي تحترق.. ويحترق معها كل ماضيها في الحياة..

تأملت أسطح المنازل الممتلئة بالخرائب والقمامة التي طفت على شفق نام الناس فيها مستريحين رغم ضيق جدرانها، وقد خيمت سحابة سوداء على كل شيء في سماء القاهرة..

سمعت صوته من خلفها: لِمَ فعلتِ ذلك؟

لم تستدر إليه وأخذت برهة حتى تجيبه: حاولت البحث عن سبب نزيف الألم الذي استنزفني طويلاً ولا يهدأ وجعه أبدًا، لأضمده أو حتى أقطعه ولكني لم أستطع، أتيت هنا لأحرق صندوق خواطري لعل رؤيتي لحريقه تحقق ما أسعى إليه..

- ماذا؟! صندوق ماذا؟ إني أحدثك عما فعلته مع كامل.

- كان لابد أن أفعل ما فعلت.

- لم أكن أعلم أن فيك خصلة الانتقام.

- كيف عرفت أني هنا؟

- بحثت عنك في كل مكان، فقادني حدسي إلى أنك في بيت عائلتك القديم... لم تجيبي على سؤالي.

- كامل يستحق ذلك.. لا تقف في صفه.

- حبيبتي، لو كانت الدنيا كلها في كفة وأنتِ في كفة لربحت كفتك عندي، ولكني لم أرد أن تعاديه أو تستثيري غضبه ضدك بنشر صوره الفاضحة على صفحات الإنترنت، أنت لا تعرفين ماذا يحدث الآن.. الدنيا كلها تتكلم عن هذا الحدث.

- لقد تحملت حملاً لا يتحمله جبل، تدفأت بالزيف وكذبت على نفسي فهوى بي إلى برودته القاسية، وعشت فترة طويلة في عذاب مرير بعدما رأيته في أحضان أخرى، ضاعت كرامتي وإنسانيتي ومادت الأرض من تحتي، ولم يعد لي عماد أستند عليه من هول ما رأيت.

- أقدر بشدة جرحك الأليم ولكن.. لماذا الآن بالذات؟

قالت بصوت تهدجه الدموع: قد تكون الأسباب والتفاصيل أشد جرحًا مما فعلته.

- شيء فيك انطفأ.. لا أرى أمامي سوى...

قاطعته: خرائب.. لم يعد بداخلي سوى بقايا امرأة، لا أعلم كيف خُدعت فيه لهذه الدرجة؟! كيف كان إنسانًا آخر غير حقيقته؟ أحببته.. نعم أعترف بها، حبًا أجوف.. كقلبي، أحببت ثقته في نفسه.. في كلمته واحترامه لها، وأعجبتني فلسفته في الحياة لأنها فلسفة عاقر لا تُبيح لي طرح المزيد من الأسئلة المرهقة على عقلي.. بل الاستمتاع بالحياة فقط، كانت تتلاقى بيننا الكثير من النقاط أو هكذا ظننت، رأيت فيه زوجًا وسكنًا بعدما عانيت ويلات الوحدة.. رأيت في عينيه طفلاً قادمًا يغير الطعم المرّ الذي اعتدت عليه ويذيبني فرحًا بكلمة (ماما) تخرج من فمه الصغير، ولكن اتضح لي أن حياتي عقيمة لا تتحقق فيها أغلى آمالي.. وصفعني صفعة أفقدتني ما تبقى مني، ومازلت أسير هائمة أحاول استرداد بقاياي، وأدركت أني مجرد ظل ليس مسموحًا له أن يوجد في حضرة الشمس.

ردد بصوت خافت: أحببته؟! ولكن ليست كل الأيادي الدافئة تحوي الحب.

هبت صارخة: أرجوك ارحمني من فلسفتك هذه!

وضع يده على يدها الممسكة بالسور فانهارت دموعها وكأنها كانت تنتظر لمسته، احمر وجهها والتهب وارتمت في حضنه، أخذها وأحاطها بين طيات قلبه ليستوعب مأساتها في صدره حتى لم يعد يظهر رأسها في حناياه، كم كانت تحتاج لهذه اللحظة منذ رجوعه.. ومرت دقائق من صمت حزين وهواء لا يسعى أبدًا لصدريهما وسط سماء المساكن القديمة.

رفعت رأسها لتعانق رأسه وتريح جبهتها على رقبته، واستمرت هذه اللحظات لا تسمع إلا أنفاسهما.. أنفاس حيرى وجدت الهدوء والأمان، بعدت عنه برفق وقالت بعينين حمراوين مازالت تحمل أثر البكاء:

أتعلم ماذا أتمنى الآن؟

مسح بإصبعه وجهها وسبح في عينيها منتظرًا الإجابة..

- أريد أن أقف أمام البحر وأفتح له ذراعيّ وأتنفس هواءه بملء روحي فتعبث بي نسماته، وأخلع حجابي وأترك شعري يطير لأول مرة في الشمس، وأذهب به إلى عالم مجنون.. حر.. لا يعرف أحدًا، أطير كطيران خصلات شعري في الهواء ولا أبالي بأي شيء مما فات.. أو ما هو قادم.

أجابها بهمس العبد المطيع: لك ذلك يا أميرتي.. إنني مستعد لفعل أي شيء من أجلك، هيا بنا نذهب إلى الإسكندرية.

أمسك يدها وأطبق عليها بقوة فابتسمت، فأعطت الابتسامة بُعدًا جديدًا لوجه ضاحك باكٍ واستدارا ليقابلا قدرهما الذي تفرق يومًا ما وتلاقى بعد سقطة من الزمن، هربت الدماء من وجهها من المفاجأة، وتجمدت أوصالهما ليواجها مصيرهما معًا.

- كنت أعرف أنك ستكوني هنا وسط خرائبك وبيتك القديم، كما تركتني وذهبتِ لهذا الحقير، أنتِ الخائنة وليس أنا..

ظلت صامتة وشدت يدها على يد عمر أكثر..

- دائمًا تتلبسين بلباس الطهر والنقاء وقد اختليتِ برجل آخر سريعًا ولم يمر على طلاقنا سوى بضعة أشهر.

هتف عمر بحدة: لا تتكلم معها بهذه الطريقة، هذه المرأة ستصبح زوجتي.

نظر إليه كامل باحتقار وقال: يا لجرأتك وسفالتك، أنت الذي هدمت بيتي وفرقت بيني وبين زوجتي، وتقف الآن بكل وقاحة وتنظر في عيني لتقول إنك ستتزوجها؟! لا أعلم أيًا منكما نشر الصور التي شهّرت بي، ولكن لا يهم.. فكلاكما سيلقى جزاءه.. الآن.

تحولت نظرة المفاجأة في عينيهما إلى فزع عندما أشهر مسدسه نحوهما..

- ماذا تفعل؟ هل جننت؟!!

وجه كامل مسدسه إلى وجه عمر في حزم وقال:

لا أريد سماع صوتك وإلا أسكته إلى الأبد.

ونظر إليها نظرة تتفجر ألمًا: لا تخافي يا عزيزتي.. يا من أحببتها حبًا كبيرًا، سوف لا أقتلك مهما فعلتِ بي، بل سأقتله هو وأجعلك ترينه ينزف وتتحسرين عليه بقية عمرك.

استجمعت نفسها المشتتة وأعقبت على قوله: أنت لم تحبني.. بل لم تحب إلا نفسك، وما حدث فيك لم يكن إلا جزاء خيانتك.

- انظري إلى نفسك وإليه.. كلنا خائنون.. كلنا مجرمون، لا يحل لك الكلام بعد ذلك.

- أرجوك أعطني المسدس.

حذرها: ابقِ مكانك.. تعلمت استخدام الأسلحة وتدربت عليها بعد أول لقاء بينكما، لا تجعليني أفرغه فيك في لحظة طائشة.

- إنني أكرهك.. أكرهك بملء قلبي.

- تعالي هنا..

فرد عمر ذراعه أمامها ليحميها، فصرخ كامل:

اتركها وإلا فجرت رأسيكما الآن.

نظرت إلى عمر بنظرات إشفاق وأزاحت ذراعه، وذهبت إلى كامل بخطوات بطيئة حذرة، وما إن اقتربت منه حتى شدها بقوة من وسطها وأحكم قبضته عليها، وهو مازال شاهرًا سلاحه في وجه عمر.

همس إليها بتحفز وتهديد: ماذا؟ أتخافين؟! أترتجفين في حضني وقد كنتِ في حضن رجل آخر منذ ثوانٍ؟!

- أرجوك يا كامل.. كل هذا حديث عديم المعنى، إنني الآن أحب هذا الرجل وسأتزوجه، أنت أيضًا عش حياتك كما تريد.

قال بحدة: اقتربي أكثر.. قبليني.

نظرت إلى عمر، فأمسك ذقنها بقوة مكررًا أمره: قبليني وإلا فجرت رأسه.

اقترب وجهها منه بدموع ذليلة.. قبلته وهي تتألم .. تموت، استنزف كل مرارة فمها واستنشق أنفاسها المختنقة وامتص ريقها المبتل بالدموع عن آخره، فاضطرمت النار في صدر عمر فتحرك نحوه ليبعده عنها في زئير أسد جريح، فأبعد رأسه عنها.. وبدون تصويب.. انطلقت الرصاصة الأخيرة في هذا المشهد.

مزق صراخها عنان السماء وناحت في عذاب وحسرة، وقطع أنينها أشلاء قلبها ووزعها على أماكن ظنت أنها ناجية من هذه الحياة... مكان صرّح فيه بحبه.. ومكان رسم فيه عينيها وقبلها بشوق ولهفة.. ومكان لثم فيه يديها في خضوع عاشق عندما كانت أحلامها مازالت بكرًا بريئة... ومكان احتواها فيه بين ذراعيه وقلبه وسقط على قدميها ينزف.

*****

جلست بقاياها المتهدمة على أعتاب غرفة العناية المركزة في المستشفى.. جسدها يرتج من مشهد النزيف الذي مازال متمثلاً أمامها يرعبها من لحظة قد تفارقه فيها إلى الأبد، سمعت صوت أقدام تجري نحوها.. رفعت رأسها الثقيلة ببطء لتجد وجه امرأة عجوز تحمل ابنة عمر وتقول بجزع:

ماذا حدث؟

لم تستطع أميرة تجميع رفات الكلمات لتنطق بها، ولكنها أخذت من يديها داليا التي أخبرت مربيتها في دهشة أن أميرة تبكي وتسألها عن السبب، جرت المربية لتسأل الطبيب عن حالة عمر بينما أمسكت أميرة الطفلة برفق وقربتها منها.. تاهت في عينيها وعاشت في وجهها البريء الذي يحمل أجمل ما في روح عمر.. رأت فيهما شيئًا باهتًا لاح من بعيد، ومررت يدها المرتعشة على خدها الرقيق والطفلة ذاهلة لا

تفهم شيئًا. فاحتضنتها أميرة بشدة تريد أن تنصهر فيها. فاحتوتها بيديها الصغيرتين وعلقت ذراعها على رقبة أميرة تراقب اضطراب لهثاتها. ومرت دقائق طويلة حتى نامت الطفلة بين يديها..

نظرت في وجهها مرة أخرى في حيرة وحزن.. لا تعرف ماذا سيكون مصير عمر وماذا تُخبيء لها الأيام القادمة. هل سيستمر النزيف يتدفق حتى الموت أم سيحقن في شريان البعث من جديد؟

الأصوات الرتيبة لجهاز القلب قادمة من حجرة العناية المركزة.. توحي بالأمل واليأس معًا.. تسقط في أذنها بالتناوب مع دقات قلبها القلقة.. خوفها يتزايد.. أعادت الطفلة إلى صدرها وضمتها مجددًا لتفكر فيما سيحدث وتتمنى..

وظلت تنتظر..

وتنتظر..

(تمت بحمد الله)

شكرًا..

لكل من ساعدني بمعلومة أو تجربة إنسانية فأعانني على كتابة هذه الرواية..

شكر خاص جدًا..

لعثرات الحياة..

صدر للكاتبة

- الأصوات الخفية (مجموعة قصصية)

- لعنات الموتى: بالاشتراك مع الكاتب مصطفى جميل (مجموعة قصصية)

- حكايات (كتاب جماعى)

- شفرة من العالم الآخر (رواية)

للتواصل مع الكاتبة:

Fatma_biochemist٢٠٢٢@yahoo.com



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢-٠٢   ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧



• لا تظلميه ما دمتِ لم تشاهديه أو تتأكدي بدليل قاطع على هذه الفعلة .

ترددت وهي تقول : إنه مدمن مشاهدة أفلام قذرة .

رد ببساطة : عادي.. اعثري لي على رجل لا يشاهدها .

ضيّقت عينيها ونظرت إلى الأرض: إنه يطالبني بكل ما يراه فى تلك الأفلام .

• هذا حقه ، لو كان أخذ كفايته فى بيته لما نظر خارجه .

اختنق صوتها وهي تقول : وأين حقي أنا؟ لماذا لا يراعي مشاعري؟ لقد استطاع بكل جدارة أن يشبعني قرفًا واشمئزازًا .. أن يجعلني أكره محبتي له، إلى متى يأخذ ويستمر فى الأخذ ولا يشبع أبدًا دون عطاء؟

•••••••







غلاف:مي يسري